قبس من الإيمان

وحساب للملاحدة والوجوديين

بقلم

كمال أحمد عون

من علماء الأزهر

والمدير العام

لمنطقة التعليم الازهرية بطنطا

الطبعة الثانية

دار العلوم للطباعة والنشر

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

لدار العلوم للطباعة والنشر
ص.ب. ١٠٥٠ ــ هاتف ٤٧٧٧١٢١ ــ ٤٧٧١٩٥٢
الرياض ــ المملكة العربية السعودية

الطبعة الثانية
١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م

قبس من الإيمان

وحساب للملاحدة والوجوديين

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهْداء

إلى المؤمنين؛ ليزدادوا إيماناً، بما يتلى عليهم من آيات الله.

وإلى الحائرين المترددين؛ ليستبصروا أدلة الإيمان في ضياء العلم، فتطمئن قلوبهم بذكر الله.

وإلى المنكرين الجاحدين، ليعرفوا مواطىء أقدامهم، وهل لها في أرض الحقيقة من ثبات!.

وإلى الغافلين الهاجعين، عسى أن يفيقوا مما حواهم من كرًى وسُبات.

إلى كل من يهمه أمر نفسه كإنسان، ويشعر أنه بإنسانيته فوق سائر الحيوان، وأنه بهذا ينتظم في موكب الخلود، وأن روحه قبس من روح هذا الوجود، وأنه بعمله رهين، شقي أو سعيد.

إن هذا إلا البلاغ، وإنما يتذكر أولوا الألباب، والله الهادي إلى الصواب.

كمال أحمد عون

المحتويات

الموضوع	الصفحة

تمهيد

لا ينكر أحد أن الشباب يعاني أزمة فكرية، وقلقاً نفسياً، وأن بعض الأوساط يسودها جو من الشك والحيرة، يدفع بالأفراد إلى الجحود والإنكار، إن لم يجدوا ما يفتح لهم باب البصيرة، ويزيل أسباب الارتياب ويرد إليهم الثقة والإيمان.

والشباب وهو للأمة موضع الرجاء، ومناط الأمل، مستهدف لعوامل شتى في نشأته، وبيئته، وتعليمه، والعصر الذي يعيش فيه، يكفي بعضها لاضطراب أمره، وبلبلة فكره.

فالبيت المسلم المستنير بروح الدين القويم لا يتوفر للكثير.

والبيئة التي تحمل على التقدير والإجلال، وترفع لأنظار الفتى الناشىء المثل الطيب والقدوة الصالحة، لم يعد يحسها فيما حوله.

وعناية التعليم العام للدولة بالمنهج الديني، والتربية الفاضلة. ليست كما ينبغي، ولم تصل بعد إلى أن تقدم للطلاب ما يملأ قلوبهم ووجدانهم بالمشاعر الدينية السامية، فيكون عصمة لسلوكهم، وذخراً لآدابهم، وقوة في أرواحهم، ودعامة لأخلاقهم،إذ يخوضون معترك الحياة الشديد.

أما العصر الذي نعيش فيه، فناهيك به مثار قلق واضطراب، تيارات فكرية عاتية،ومذاهب سياسية مصطرعة، واكتشافات علمية رائعة، ثم حياة اجتماعية صاخبة، وعمران مشتبك، تحس ذلك كله بالطيران يقرب القصي من

الأقطار، وبالمفتاح في المذياع تديره فينقل إليك البعيد من الأفكار، ويحضرها لك حضور سماع أو حضور عيان، وبالصحيفة والكتاب يسجلان ما ظهر وما استتر، فإذا العالم بآرائه واتجاهاته، ومذاهبه ودعاويه ودعاياته، أمامك وبين يديك. والناس مختلفون مذ كانوا، ولحكمة عليا كان هذا الخلاف، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، فماذا يأخذ الفتى وماذا يدع، وأي منهج ينهج، وأي رأي يعتنق.

ومن يك لم يفر الأمور بحزمه تحير ما بين اختلاف المذاهب.

لقد كانت الحيرة والشك في مثل هذه الحال، ولمثل هؤلاء الناشئين، في ظروفهم الخاصة والعامة نتيجة حتمية، تطوق أعناق القائمين على أمر هذا الشباب، والحريصين على خيره وخير هذه الأمة بواجبات ثقال، وتفرض عليهم مضاعفة الجهود؛ ليزيلوا عنه عوامل حيرته، وتلزمهم بالعمل الجاد في سبيل تنشئته تنشئةً صالحة، وتزويده بالثقافة النافعة، وملء وجدانه وشعوره بالغذاء الروحي، الذي يستحيل في قلبه وفؤاده قوة واقية، وعزيمة غالبة، تأخذ مما حولها دواعي أمنها، ومادة إيمانها، وعدة كفاحها، وتنفي عن خلاياها السموم القاتلة، كما تأخذ البنية السليمة خلاصة الغذاء، وتطرد بقاياه التالفة.

لقد كان أشبه «بالمودة الجديدة» أن يشيع بين الناشئة قولهم «أين هو الله؟»!! وكأنهم ــ ومن أغروهم[1] بذلك ــ فرغوا من العلم بكل محسوس، وأحاطوا معرفة بكل موجود، فأدركوا مثلاً حقيقة روحهم التي بين جنوبهم، وفطنوا إلى طريقة تفكيرهم، وماهية عقولهم، فضلاً عما يحيط بهم من عوالم ظاهرة وخفية، ولم يبق إلا أن يحسوا بأيديهم ويبصروا بأعينهم، رب هذا الوجود، وخالق كل موجود، ومن ليس كمثله شيء وهو الكبير المتعال. «لا تدركه الأبصار. وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير».

---

(١) كانت موجة عاتية، على أثر صلات سياسية واقتصادية وحربية بروسيا ــ توهم بعضهم أن مصر بكل ثقلها الديني، وشعبها المؤمن، وأزهرها المجاهد، سائرة في فلك روسيا الشيوعية ــ ثم انحسرت الموجة ــ بحمد الله ــ وانجحر منهم من انجحر، وأعلن الشيوعيون في مصر أنهم يؤمنون بالدين، ورحل من رحل من الشك إلى الإيمان. وما كان شكا، بل كان استغلالا وتهجما وبذاء!!

سمعنا هذا في أوساط الناشئة، وسمعنا شكاية الآباء مشفقين من عواقب ذلك على أبنائهم، بعد أن عجزوا عن إقناعهم، وإراحة ضميرهم، والأبناء في جهالتهم بالتعاليم الدينية شبه معذورين، وهم يشعرون بأن أبرز الأمم وأقواها لا تهتم بالدين؛ فالعالم الغربي يعترف به نظرياً ولا يباليه في حياته وسلوكه، وروسيا السوفييتية التي أطلقت القمر الصناعي، وبلغت ما بلغته في مضمار العلم والقوة العسكرية مادية ملحدة، تخلصت في رأيها من أوهام الدين وخَدَر التدين. فأي شيء في الحياة العامة إذاً يدعو إلى الإبقاء عليه.

وهناك فئة من الكتاب تستوحي مادية روسيا ومادتها؛ وطائفة أخرى تخدم أهداف الاستعمار والمستعمرين؛ وكلتاهما تلح في هذه الدعاوى؛ سالكة كل سبيل كي توهن أمر هذا الدين؛ وتنال منه في نفوس بنيه؛ وتحول بينهم وبين الانتفاع بتعاليمه وآدابه؛ زارية على حملته ودعاته،وعلى كل ما يتصل به من قريب أو بعيد، بغية زلزلة العقائد في قلوب الأفراد، والقضاء على الروح المعنوية في صفوف الأمة. وما الدين عند هذه الفئات إلا أمر تاريخي عفا عليه الزمن.

وجهل هؤلاء وأولئك ــ أو تجاهلوا ــ أن قادة الغرب الذي أهمل الدين، شهدوا في الحرب الأخيرة بأن القوة الروحية أضعاف القوة المادية مرتين أو ثلاثة.

وجهلوا أو تجاهلوا أن روسيا الرسمية بكل صولتها وجبروتها، وما اتخذت من أساليب الدعاية وألوان القهر والبطش والتعذيب، قد عجزت أخيراً عجزاً تاماً،عن تحويل روسيا الشعبية عن دينها؛ وعن أن تحول بينها وبين معابدها وكنائسها ومساجدها، فاضطرت إلى مسالمة الشعور الديني، والاعتراف بحق التدين لشعبها، وهي بعد لم تزل في عنفوان ثورتها المادية، وفي عزة النصر، ونشوة الظفر.

وجهلوا كذلك أو تجاهلوا أن التدين من حيث هو طبيعة إنسانية لا محيد عنها؛ وأن من لم يدن للحق دان بالباطل؛ وأن الجحود والإنكار شذوذ وانحراف، يؤكد ضرورة القاعدة لصلاح بني الإنسان؛ فما الجو العاصف الذي يتهدد العالم بشر مستطير؛ وينذر البشرية بالفناء الماحق؛ إلا أثر من آثار المادية المسلطة؛ والإسراف الشديد ــ وبخاصة من الساسة ــ في إهمال جانب الروح.

قوة الإسلام:

ونحن الذين نرى في هذه الموجة الهادرة من الأباحية المستهترة، وفي تلك الدعوة السافرة إلى المروق والإلحاد، خطراً وأي خطر، على كيان أمتنا العزيزة البانية، لا تزايلنا الثقة لحظة. ولا يخالج تفاؤلنا ريب في مستقبل هذا الدين وانتصاره.

والإسلام الذي غزا جل هذه المعمورة من الصين والهند شرقاً؛ إلى البحر الغربي المحيط في زمن يسير لا يعرف التاريخ له نظيرا، لم ينتصر قط بقوته العسكرية، ولا بغلبته الحربية، وإن فتحت هذه القوة أعينا كانت في حاجة إليها، وأزالت العوائق من طريق الإسلام نحوها، فأبصرته عن قرب وعرفت حقيقته عن عيان، ودخلت في دين الله أفواجا.

وظل الإسلام قوياً مظفراً وإن ضعف أهله، ودان سلطانهم.

لقد طوى المغول الدولة الإسلامية، وارتكبوا من الفتك والتدمير والبربرية في المسلمين، ما ارتعدت لهوله فرائص التاريخ، ولكن الإسلام طواهم بعدُ واتخذهم له أجنادا.

ولقد سكن ريح المسلمين زمناً طويلاً، بما توالى عليهم من كوارث ومحن وزحفت قوى الغرب وجحافله؛ وكادت لهذا الدين كيدا طاغياً، ظاهراً وخفياً، وبدلاً من أن تمحوه أو تنال منه، احتفظ في بلاده بحيويته وجنوده، واندفع في سلمه يفتح المعاقل ويشرح الصدور، وينشر نوره وهداه يميناً ويسارا.

ودلف الاستعمار الحديث إلى أندونيسيا واستولى عليها. وكان الإسلام إذ ذاك نبتة صغيرة بين ربوع البلاد، وتعاقب المستعمرون البرتغاليون والهولنديون والفرنسيون والانجليز واليابان، ثم طردت أخيراً هولندا بعد احتلال دام ثلاثة قرون، وخرجت راغمة وفي البلاد ما ينيف على السبعين مليوناً من المسلمين(١).

* * *

(١) بها الآن أكثر من مائة مليون من المسلمين، ولكنها مستهدفة لغوائل الاستعمار، وخطط التبشير والتنصير، كأكبر تجمع إسلامي، بيد أن شبابه المسلم ومجاهدين متيقظون لمكايد الأعداء.

وزحفت زحوف المبادىء الإسلامية، تغزو مجاهل أفريقيا، مجردة عن المال والسلاح ومظاهر المغريات، تاركة جحافل المبشرين في هذه الديار، بذهبها ومدارسها ومصحاتها وحماية جيوشها، حسيرة مبهورة الأنفاس، تعض الأنامل من الغيظ على نجاح الإسلام العجيب، في اجتذاب مائة مليون من الأفريقيين.

بل اقتحمت هذه المبادىء الإسلامية معاقل الفكر الأوروبي والأميركي، فقام للإسلام دعاة أوروبيون درسوه وفهموه واعتنقوا مبادئه، وأخذوا أنفسهم بالدعوة إليه.

إن انتصار هذا الدين في ضعف أهله، وعجزهم عن حماية أنفسهم وحمايته، لآية الآيات على قوته وحيويته واقتداره.

وما أشبه انتصاره هذا بانتصار داعيه الأول وحيداً فريداً على قوى الشر من حوله حتى دانت لدعوته صلى الله عليه وسلم في عشرين عاماً بلاد العرب قاطبة، إلى مشارف الشام والعراق.

إن الإسلام ينتصر وأهله سادة غالبون، وإنه كذلك ينتصر وبنوه مغلوبون ومستعمرون، فالقرن التاسع عشر قرن الغارة الشاملة على العالم الإسلامي بالسلاح والمبادىء والتبشير، وهو القرن الذي اصطلحت فيه عوامل الضعف والعلة على البلاد الإسلامية. بدأ هذا القرن «وفي العالم من المسلمين نحو ثلثمائة مليون، وانتهى وعددهم حوالي أربعمائة مليون»[١] لا يكثرون من داخلهم فحسب؛ ولكن بما يضمون من شعوب وأقوام.

* * *

أما القرن العشرون؛ فإذا كانت الدولة فيه للعلم، فالمستقبل ولا ريب لهذا الدين الذي اتخذ من العلم شعاراً ودثاراً؛ فأوجب في كلمة التوحيد ـ وهي من هذا الدين أساسه ـ أن تبني على العلم؛ وقال: «فاعلم أنه لا إله إلا الله» وأمر المسلمين بما أمر به نبيه أن يقول: «رب زدني علما».

المستقبل ولا ريب لهذا الدين الذي استبطن العلم قلباً، وكرمه قالبا،

---

(١) الإسلام في القرن العشرين ص ٤٦.

فجعل العلماء الراسخين أهل خشية الله وتقواه «إنما يخشى الله من عباده العلماء» ورفع المؤمنين ذوي العلم قدراً «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات».

إن الإسلام دين العلم الذي استحق به الإنسان ـ على ضعفه ـ خلافة الأرض، وسخر له ربه ما فيها وما عليها، كما سخر له الشمس والقمر والنجوم، وأعلمه أن ما تجلى له من العلم وبالعلم قليل، وأن عليه أن يطلب المزيد، وأن يعتبر بما بين يديه من سنن الله في خلقه، لينتفع بكل هذا الذي سخر له. والإسلام بهذا دين عالمي، بل هو دين العالم بأسره غداً، والعلم يخدمه ويكشف من حقائق الكون ما يكون مادة بيان وبرهان، ومدداً قوياً في نصره وتأييده.

وبعد:

فهذه رسالة موجزة، لم تزد أن تكون كما ينبىء عنوانها «قبساً من الإيمان..».

ألقيت أصولها محاضرة محررة بدار الشبان المسلمين في طنطا، وتلتها محاضرات شفوية، ومذاكرات في مناسبات عدة، رغب إليَّ صفوة من الأصدقاء في نشرها، سداداً لحاجة ملحة حاضرة في نفوس ناشئة يبتغون الهدى، وحماية لآخرين من آثار دعايات زائفة. واتجاه في بعض الصحف والمجلات خبيث.

ورأيت أن إرجاءها حتى تستكمل كل ما أريده لها، إرجاء لخير حاضر رجاء خير منتظر، فعجلت بها بعد أن أعدت النظر فيها؛ واستوفيت بعض نواحيها؛ ولم أغير من نهجها وأسلوبها كمحاضرة لتظل على طبيعتها؛ ولم أحذف ـ وقد هممت ـ مناقشات وإجابات تبدو للدارسين في غير حاجة إلى بيان، إذ هي مناقشات واقعية، وأسئلة واردة، كثيراً ما تتردد في أوساط متعلمين ومثقفين. وأشباه المتعلمين والمثقفين؛ ممن غلبت عليهم الأمية الدينية. وفشت فيهم الجهالة بمبادىء الدين وأولياته.

والرسالة ذات شقين: أولهما وحي آية كريمة، نقبس من معانيها ضياء الإيمان، وبرد اليقين. وثانيهما حساب ومناقشة علمية لآراء الخاطئين وشبهات

الملحدين. في القديم وفي الحديث؛ وذلك قياماً بواجب الدين؛ وصيانة لقوم مؤمنين «يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين. ويفعل الله ما يشاء».

والرسالة على ما تضمنت من بحوث،وفندت من شبه،ومحقت من أباطيل، وأقامت من براهين، لم تعد حد الإيجاز الشديد في موضوعها. رغبة في سهولة استيعابها،وتيسيرا للانتفاع بها.

والله الذي تكفل بحفظ دينه وكتابه،هو المرجو سبحانه للتوفيق والهداية، وهو على ما يشاء قدير ونعم المولى ونعم النصير.

قبس من الإيمان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعانِ فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي، لعلهم يرشدون﴾

(صدق الله العظيم)

حمداً لله الذي أنزل على عبده الكتاب، هدى وذكرى لأولى الألباب، فعصم به أولياءه من الضلالة، وصانهم من الغى والجهالة، وأقام لعباده الآيات البينات في الأنفس والآفاق، شاهدة بربوبيته، ناطقة بألوهيته، دالة على بليغ حكمته، وعظيم رحمته، وجليل قدرته، سبحانه ﴿خلق السموات بغير عمد ترونها، وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم، وبث فيها من كل دابة﴾ سبحانه ﴿فالق الحب والنوى، يخرج الحي من الميت، ومخرج الميت من الحي، ذلكم الله فأني تؤفكون﴾. ﴿وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون﴾. ﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم، وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾.

فالحمد لله الذي هدانا للإيمان، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على جميع رسل الله، وعلى صفوتهم وخاتمهم سيدنا محمد بن عبد الله، من أكمل الله به الدين، وأتم به النعمة. وهدى به إلى الصراط المستقيم.

هو الحق:

أيها السادة، تحية من عند الله مباركة طيبة.. وبعد.

فموضوعنا الساعة موضوع جليل. إنه موضوع الحقيقة الكبرى، التي بدت آثارها للناظرين. وسمت ذاتها عن مدارك المخلوقين. وتقدست صفاتها عن أوهام الواهمين، وشاق جمالها أفئدة العارفين، فأشرقت بأنوار الله قلوبهم، وعمرت بخشيته جنوبهم، وجاشت بحبه خواطرهم، واستقامت على ذكره ضمائرهم، فكانوا في هذه الحياة ميزانها القويم، وقسطاسها المستقيم، وروحها المعتدل، وقدوتها الماثلة. ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ لا يزيغون إذا ما زاغ الناس، ولا تضرهم وساوس الخناس ﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا، وعلى ربهم يتوكلون﴾ فهم قوامون بالقسط، ظاهرون على الحق، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله.

عرفوا الحق ـ وهم أهله ـ فسارعوا إليه. وجهله أو تجاهله آخرون فعموا وصموا عنه، فناداهم الحق على رؤوس الإشهاد. بما يقرع السمع والبصر والفؤاد ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين. ما خلقناهما إلاّ بالحق، ولكن أكثرهم لا يعلمون، إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين﴾.

﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً، وأنكم إلينا لا ترجعون، فتعالى الله الملك الحق لا إله إلاّ هو، رب العرش الكريم﴾.

﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من منى يمنى، ثم كان علقة فخلق فسوى، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾؟ بلى قادر ﴿وهو بكل خلق عليم﴾.

ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين.

مع القرآن:

نحن الآن أيها السادة، في ضيافة الرحمن، وعلى مائدة الكريم المنان، نصيب منها ما شئنا، ونشرب من نميرها ما أردنا، ونتغذى بخيرها ما استطعنا. في الحديث الشريف:

﴿إن هذا القرآن مأدبة لله، فتعمدوا مأدبته ما استطعتم﴾.

فالقرآن مائدة السماء إلى العالم الأرضي. غذاء وشفاء، ونور وهدى، وعلم وحكمة، وإيمان ورحمة.

وقد روى الحديث بفتح الدال كذلك «إن هذا القرآن مأدَبة[1] لله أي أنزله تأديباً لخلقه وتعليماً، يقوم به أخلاقهم، ويهذب نفوسهم، ويربي أرواحهم، ويصلح أمورهم وأحوالهم، ويسعدهم به في الدنيا والآخرة.

وهذه آية من آياته، روح لأرواحنا وري لقلوبنا، ونورفي بصائرنا، نسأله سبحانه أن يلهمنا التوفيق والسداد، ويمنحنا التأييد والرشاد، إنه على ما يشاء قدير.

روي في سبب نزول هذه الآية الكريمة. أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ يسأله: أقريب ربنا فنناجيه: أم بعيد فنناديه؟

فنزل قوله تعالى: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب. أجيب دعوة الداع إذا دعان. فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾.

فإذا شاء العباد أن يتعرفوا من شؤونه سبحانه، ما يقربهم من جنابه، ويدنيهم في رحابه، ويدفع بهم إلى بابه. فلينظروا في ملكوته، وليتأملوا عجائب صنعه، وليتدبروا معجز إبداعه، وليقرءوا في الذكر الحكيم ﴿هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه﴾.

وإذا سألوا بلسان الحال، عن أمر الكريم المتعال، فهو الأول والآخر، وهو الظاهر والباطن. علا بحوله وعظمته، ودنا بطوله ونعمته، وتفرد عن خلقه بسلطانه. وقرب منهم بفضله وإحسانه ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾.

وإذا سألوا بلسان المقال عن رب العزة والجلال. قاصدين ساحته راجين

---

(١) مفعلة من الأدب.. والتاء للمبالغة (أمالي المرتضي، ج ٢، ص ٢٨).

رحمته. فليعلموا أنه منهم قريب، يجيب المضطر إذا دعاه، ويغيث الملهوف إذا لجأ إلى حماه.

قريب مجيب:

وكيف لا يكون قريباً من عباده، وهو الذي خلقهم بيده، ونفخ فيهم من روحه، وأجرى لهم الرزق أجنة في بطون أمهاتهم، ورعاهم ولا حول لهم ولا قوة ﴿خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث﴾.

﴿لقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاماً، فكسونا العظام لحمًا، ثم أنشأناه خلقاً آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ ـ ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، لعلكم تشكرون﴾.

وكيف لا يكون قريباً من عباده. رؤوفاً بهم رحيمًا. وقد سخر لهم الأرض وما فيها، وجعلها ذلولاً، ومهدها طرائق، وسمك السماء بعظيم خلقها، وروعة أجرامها، سقفاً محفوظاً، ورفعها سبعاً طباقاً ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾ وزينها بزينة الكواكب، لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، وسخر الشمس والقمر دائبين، وسخر الليل والنهار، وأنزل الماء من السماء، فأجرى به الأنهار، يحيى به الأرض بعد موتها ﴿وينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون * وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحمًا طرياً، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها، وترى الفلك مواخر فيه، ولتبتغوا من فضله، ولعلكم تشكرون﴾.

بل كيف يكون بعيداً من الإنسان من سواه بيده، وعلم ما توسوس به نفسه، وهو أقرب إليه من حبل الوريد؟.

﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلّا هو رابعهم، ولا خمسة إلّا هو سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلّا هو معهم أينما كانوا، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة،

إن الله بكل شيء عليم﴾ ـ ﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حينئذ تنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون﴾.

﴿له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون﴾.

فهو سبحانه القريب، وهو الحسيب الرقيب، وهو الحكيم الكريم، وهو الغفور الرحيم، يتعرف إلى عباده بالنعم، ويبسط لهم موائد الكرم، فإن تأخروا دعاهم، وإن تباطئوا ناداهم، وإن غفلوا ذكرهم، وإن أخطئوا أمهلهم، وإن أسرفوا على أنفسهم ثم عادوا إليه قبلهم وعفا عنهم، ومحا ظلمة اليأس من قلوبهم، وفتح لهم باب رحمته، وزف إليهم البشرى بمغفرته ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات. . . قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾.

العارفون:

وعباد الرحمن يعرفون أنعم الله عليهم، ويذكرونها دائمًا، ويشكرونها جهدهم، فهم يحسونها في الشربة يشربونها، وفي الأكلة يطعمونها، وفي النفس يتردد في صدورهم، وفي الدماء تجري في عروقهم، وفي النور من أبصارهم. وفي السمع من آذانهم، وفي الفهم من عقولهم، وفي كل شيء من ذواتهم أو مما حولهم، تقع عليه حواسهم، أو تدركه أفهامهم، مما لم يصنعوه لأنفسهم ولم يخلقوه لنفعهم بأيديهم، ولم يودعوه ما أودع فيه مما تقوم به الحياة ويحيا عليه الناس ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ سبحانه لا يبلغ مدحته القائلون ولا يحصى نعماءه العادون، ولا يؤدي شكره المجتهدون[1] وكيف نبلغ من ذلك ما نريد، وكيف نحصي ثناء على الله؟ وكيف نقدر بوسائلنا المحدودة عظمته التي لا تنالها الحدود، وكيف نحيط بشيء من علمه إلاّ بما شاء؟ والبحر قطرة في ملكه، والأرض ذرة من خلقه، والسماء صفحة من كتابه، والشمس والقمر والنجوم آية من آياته.

سبحانه أنزل في قرآنه ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي. ولو جئنا بمثله مدداً﴾ ﴿ولو أن ما في الأرض من

(١) من كلام الإمام علي رضي الله عنه.

شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾.

وإذا كان الرب الكريم يجيب دعاء العباد وهو عنهم غني. فعلى العباد أن يجيبوا دعاء مولاهم إلى ما فيه حياتهم وإنهم إليه لفقراء ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ ففي الاستجابة لله ورسوله حياة حرة كريمة، ورشاد وفوز عظيم؛ فالمسلم عبد لله وحده، وسيد في نفسه، مطالب في كل ما شرعه ربه أمراً ونهياً بإصلاح قلبه وإصلاح فكره، وتزكيتهما وصيانتهما من كل ما ينحرف بهما عن سواء السبيل، ليمضي قدماً إلى مكان الصدارة الخيرة في هذه الحياة، فيقيم العدل والميزان بالقسطاس المستقيم، ويبلغ هدى الله للناس أجمعين. وإن أي تقاعس من المسلم عن السعي الموصول، كي يبلغ بعمله الصالح مكانه الحقيقي من هذا الوجود، ما هو إلاّ تفريط منه في أمر الله، وتضييع لحق نفسه، وتهاون في حمل أمانته، وأداء رسالته.

أيها السادة،

لقد كان من تكريم الله لنوع الإنسان، أن أعده لحمل أمانة ناءت بثقلها السموات والأرض، وأبين أن يحملنها وأشفقن منها؛ إذْ لم يكنّ لها أهلاً، وحملها الإنسان بما هيأه الله لأعبائها، وبما حباه من نعمة العقل، ومنحه من شرف الخلافة في الأرض، وهو بهذا موضع نظر الله، ومحل تكرمته وفضله.

والمسلم ــ كما يريده الإسلام ــ هو صفوة هذا الإنسان، عزيز النفس، عفيف القلب، حي الضمير، لين الجانب، عالي الهمة، قوي العزيمة، يطلب عظيم الأمور، وينأى عن حقيرها.

والإسلام يدفع المسلم دفعاً إلى هذه المعالي فهو، إذ يقول له(١): ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك﴾ يغريه مع اكتمال صفات الخير، بنشدان السعادة وقرة العين في آله وذويه وأن يكون في التقي إماماً.

﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون

---

(١) كما في نصيحة قوم قارون له.

قالوا سلاماً. والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً. . . وإذا مروا باللغو مروا كراماً. والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً﴾.

فلا ترى المؤمن كز النفس. ضيق الصدر. ضحل الفكر، إنما تراه باشاً هاشاً، يفيض إشراقاً بما خالطت بشاشة الإيمان فؤاده، الدنيافي يده، والآخرة في قلبه. يعمل بأمر الله، ويبتغي وجه الله، ويحب الخير لأخيه كما يحبه لنفسه.

مكان الآية الكريمة:

هذه الآية التي تتحدث عن شأن من شؤون الله، وتحيي في ضمير المؤمن مراقبة مولاه. وتجذبه بدافع المحبة والرجاء إلى حماه. ترونها في موضعها من القرآن الكريم، بين آيات سابقة ولاحقة. تقرر فريضة الصوم وقد كتب على المؤمنين، كما كان مكتوباً على من كانوا قبلهم. وفي آخر الآيات السابقة الآمرة بالصوم ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون﴾، فلما أمر الله المسلمين بصوم الشهر ومراعاة العدة، وحثهم على القيام بوظائف التكبير والشكر، عقبه بهذه الآية الدالة على أنه خبير بأحوالهم، سميع لأقوالهم، مجيب لدعائهم، مجاز على أعمالهم، تأكيداً له وحثاً عليه(١).

ومن شأن القرآن الكريم، إذا ما ذكر فريضة من الفرائض، أو قرر حكماً من الأحكام، أن يقرن ذلك بما يعين عليه من بيان حكمته وغايته. ويمزج الحكم بذكر الله، والحث على التقوى، تنبيهاً للقلب وإيقاظاً للوجدان، وتقوية للإيمان، كذلك إذا قص من أخبار السابقين وأنبائهم. وأبان طرفاً من آثارهم، فلا تراه يعمد إلى وقائع التاريخ، يفصل الحوادث والأخبار، ويسجل الزمان والمكان، ويترجم لهذا أو لذاك، على نحو ما تصنع كتب التاريخ والسير، وعلى شاكلة ما تقرؤه في الكتب السالفة ــ العهد القديم والجديد ــ إنما يعني بإبراز

---

(١) نقله صاحب المنار في تفسيره عن البيضاوي.

ما فيها من عظة، وبيان ما تشتمل عليه من عبرة، تبصرةً وتذكيراً، على حد قوله تعالى: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب، ما كان حديثاً يفتري﴾ ﴿وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك، وجاءك في هذه الحق، وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾.

وهكذا كان القرآن مع ما حوى من أحكام عملية، دينية أو دنيوية، وما سجل من حقائق تاريخية، وما جلا من علوم كونية، كتاب هداية وإرشاد، وتهذيب وتقويم، يعني بإصلاح الفكر والقلب على السواء، ﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾.

وجاهدهم به جهاداً كبيراً:

أيها السادة:

لعله يعز علينا أن ننتقل من ذلك الجو الروحي المشرق؛ جو الذكر والفكر والاعتبار، والتبصر في آيات الله، والتكبير له، والشكر لأنعمه، إلى مجادلة أقوام أو أشباه أقوام؛ ساءوا سبيلاً، أناس عز عليهم نظام الحق فآثـروا فوضى الباطل، وأثقل نفوسهم المريضة أن يحملوا عبء الفضيلة، فزاغت قلوبهم إلى مراتع الشهوة، زعموها حرية الآراء وما هي إلّا نزعة التحلل والهدم والتقويض ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم؛ ويأبى الله إلّا أن يتم نوره ولو كـره الكافرون﴾.

ولكن لا بأس بوقفة معهم تقصر أو تطول؛ فالقرآن الكريم نفسه قد جادل المبطلين، وكشف عن زيفهم وضلالهم، وتعقبهم فيما يدعون.

الباطل قديم:

وهنا أحب أن ألفت بعض الأنظار؛ إلى أن هذه السموم التي تنفثها الآن بعض الأوهام،ليست جديدة في هذا الوجود، ولا هي من نتاج القرن العشرين، فالقرآن يتحدث عن الأسلاف المبـطلين، لأمثال هؤلاء الأوزاع التـابعين،

فيقول: ﴿إنهم ألفوا آباءهم ضالين؛ فهم على آثارهم يهرعون﴾ ويقول في موضع آخر: ﴿أتواصَــوْا به؛ بل هم قوم طاغون﴾.

فالباطل قديم. ومذ كان آدم كان إبليس. ومذ قام حق صارع الباطل، وحيثما وجد خير طارد الشر ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة ــ وإلينا ترجعون﴾ ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾.

الإسلام دين العقل والعلم:

والإسلام لا يضيق ذرعاً بالمخالفين. وإن كان لا يغمض الطرف عن أوهام الواهمين، أو يستهين بدعوى المبطلين، وإنما يناقشهم بالحجة، ويحاكمهم إلى الدليل ويقول لهم: ﴿هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ ــ ﴿هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلّا الظن وإن أنتم إلّا تخرصون﴾.

فإذا عجزوا ــ وهم لا شك عاجزون ــ كر على مفترياتهم بالإبطال، كاشفاً ما فيها من زيف وضلال، منددأً بخلو أقاويلهم من إثارة علم أو دليل.

﴿وقالوا إن هي إلّا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلّا الدهر، وما لهم بذلك من علم﴾..

﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال: من يحيي العظام وهي رميم؟ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة﴾..

﴿ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حياً؟ أو لا يذكر الإنسان أنّا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً﴾؟..

﴿قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض، أم لهم شرك في السموات، ائتوني بكتاب من قبل هذا، أو أثارة من علم، إن كنتم صادقين﴾.

﴿هذا خلق الله، فأروني ماذا خلق الذين من دونه﴾.

فالإسلام دين العقل، دين الحجة والبرهان، دين العلم، أنزله الذي

يعلم السر في السموات والأرض، ويعلم من نواميس الخلق وسنن الحياة ما صنعه بيده، وأتقنه بحكمته، وقد جعل سبحانه معجزة الإسلام عقلية علمية، يبصرها العقلاء، ويقرأ حجتها العلماء، ويطالعون فيها من آيات الله ما يعلمون أنه من عند الله، إذ ليس لبشر بعلمه عهد من قبل. وإن شئت فاقرأ فيه على لسان النبي الأمي، الذي لم يجلس إلى معلم، ولم ينظر في كتاب، من مثل قول الله تعالى ﴿أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما﴾ أي كانتا متصلتين ففصلناهما، وانظر ما يقوله علماء العصر الحديث، بعد هذه القرون الطوال، عن الأجرام السماوية، وكيف أن الأرض جزء من إحداها وهي الشمس.

ومن مثل قوله تعالى ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة، وهي تمر مر السحاب[1]، صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾ ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾[2] ﴿وأنبتنا فيها من كل شيء موزون[3]... يكور الليل على النهار، ويكور النهار على الليل[4]... ومن كل شيء خلقنا زوجين...﴾[5].

اقرأ هذا وأمثاله، وتأمله جيداً، وانظر ما قاله المفسرون القدامى، على ما فهموه من الآيات حسب ما وصل إليه علمهم، ثم ما وضح الآن من معانيها، بعد أن تقدم العلم الحديث، وكشف من المخبآت ما لم يكن في الحسبان.

وما يزال الإسلام يطالب أهله بالعلم، ويستحثهم عليه، ويأمرهم بالاستزادة منه مخاطباً نبيه ﴿وقل رب زدني علماً﴾، ويدفع المسلمين إلى التأمل

---

(١) قال بعضهم إن حركة الجبال ستكون يوم القيامة، فلما عرف دوران الأرض وحركتها أبان ذلك عن معنى الآية الكريمة.

(٢) ظنوا أن التعبير من باب المجاز، وأنه تشبيه لتأثير الرياح في السحاب بما يكون سبباً في نزول المطر، بتلقيح ذكور الحيوان للإناث.. واتضح الآن أن الرياح تحمل طلع الذكر إلى الأنثى، وبذلك يحصل اللقاح، ويصلح الثمر.

(٣) أدرك العلماء بالتحليل مبلغ الدقة في تركيب العناصر إلى حد الادهاش.

(٤) يشير ذلك إلى كروية الأرض ولم يكن هذا معروفا..

(٥) العموم هنا على أتمه في الحيوان، وفي النبات، وفيما لا نعلم ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض، ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾.

والبحث، والنظر في ملكوت الله ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض... إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون... إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون... إن في ذلك لآية لقوم يذكرون﴾ إلى غير ذلك من آيات الكتاب الكريم. ثم لا يستوي عنده الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ بل لقد بلغ من تقدير الإسلام للعلم والعلماء، أن قرن شهادتهم في أعظم شئون الله سبحانه إلى شهادته وشهادة ملائكته فقال: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائمًا بالقسط، لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾.

وذلك لأن أولى العلم أحق الناس بأن يعرفوا جلال الله وعظمته، ويطالعوا في بديع صنعه محكم آياته، وروائع بيناته، شاهدة بوحدانيته، مسبحة بحمده وقدرته، لذلك تراهم من خشيته مشفقين ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾.

فما على أحد جناح أن يطالع ويبحث ويدقق حتى يطمئن قلبه، ولقد ضرب لنا القرآن أروع الأمثال، من أمر نبي الله الجليل، إبراهيم الخليل، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم، فخليل الرحمن يطلب أن يرى بنفسه كيف يحيا الميت، ليطمئن قلبه، ويزداد إيماناً ﴿وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى، قال أولم تؤمن، قال بلى، ولكن ليطمئن قلبي، قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً، واعلم أن الله عزيز حكيم﴾. فأراه سبحانه مظهر القدرة في إحياء الموتى بكلمة واحدة، وما أهون هذا على القدرة القاهرة ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾.

أما سر الحياة وأمر القدر، فما أدقه وأخفاه على عقول البشر، ولو كانوا الصفوة المختارين ﴿ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾.

وأين يبلغ علم العلماء، وما يدركونه من ظواهر الأشياء، إلى جانب العلم المحيط، لمن خلق كل شيء فقدره تقديرا؟.

وهل لهم أن يقولوا أكثر مما قالت الملائكة: ﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم﴾.

أيها السادة،

هذا ما يقوله العلماء الراسخون، أما أولئك الذين يحلو لهم أن يعلموا ظاهراً من الحياة الدنيا فيغتروا بما يعلمون، أو يولعون بالمخالفات فتراهم فيها يسارعون، أو يضيقون بالحق وناموسه، فإذا هم في الباطل يلجون، فلن يضيرنا شأنهم، فتلك شنشنة معروفة من قديم...

القائلون بالصدفة:

إن منهم من يقول: ليس في الكون سوى المادة والماديات، ولن نعترف بغير الحس والمحسوسات، فإذا سألتهم، ومن صنع هذا العالم في جلاله وروعته، وإحكامه ودقته؟ قال قائلهم: إنها الصدفة، وأردف يقول ـ كأنها مقالة المشاهد الخبير ـ لقد كانت المادة في خلاء، تموج ذراتها، وتضطرب أجزاؤها، في حركات غير منتظمة، آمادا طوالا، حتى تكون في دورة للذر هذا الكون العجيب.

ولتسألنهم أهي الصدفة وحدها تلك التي أتقنت هذا الإتقان الحكيم؟ أهي الصدفة وحدها وضعت كل شيء موضعه، ونزلته بقدر معلوم؟.

أهي الصدفة أجرت الشمس لمستقر لها، حيث لا ينبغي أن تدرك القمر، ولا آية الليل تسبق آية النهار، وكل في فلك يسبحون؟.

أهي الصدفة أعطت كل شيء خلقه، ثم هدته أقوم سبيل؟.

أهي الصدفة العمياء علمت الذر[1] في بيضة العصفور، ضرورة ظهورها في هيئة طير يأكل الحبوب، فوجب أن تكون له حوصلة ومنقار؟

---

(١) هذا وسطور بعده من كلام السيد جمال الأفغاني بتصرف يسير (من رسالة في الرد على الدهريين).

وعلمته في بيض الشاهين والعقاب، أنه يقوم طيراً يأكل اللحوم، فلا بد له من منسر ومخلاب؛

من علم الأجزاء المتبددة أن تدرك حاجة الحيوانات إلى القلب والرئة والمخ والمخيخ، وسائر الجوارح والأعضاء؛؟

وهل يكون ذلك إلا تقدير العزيز العليم.

* * *

لقد عرف القول بالصدفة ــ يوم كان العلم طفلاً يحبو ــ لبعض فلاسفة اليونان، وعلى رأسهم «ديمو كريت» قبل ازدهار الفلسفة على يد الفلاسفة المؤلهين، وأشهرهم: سقراط ــ وأفلاطون ــ وأرسطو».

حتى إذا جاء الإسلام بعد عهد من الجاهلية الأولى طويل، واستقام الدين على عموده، زالت عن العقول الحجب والأسداد، وتحطمت قيود التقليد والجمود، ودفع الإسلام العلم قدما إلى الأمام، ثم شعت أقباس من ضيائه في بلاد الغرب، تشرق عليها من شرقيها وغربيها حيث القسطنطينية والأندلس، فأطاحت بظلمات الفكر هناك، وتسابق العلماء إلى الكون، يستجلون خفاياه، ويدرسون نواميسه، وينشرون صحائف الإعجاز من قدرة الخلاق العظيم.

أتباع الصدفة:

وجاءت بقية اتباع الصدفة ــ وقد وقفوا أمام عظمة الكون مرتاعين، فحاولوا أن يزيلوا من نفوسهم تمثل روعته، وما يوجب حتما من الإقرار بعظمة خالقه ومبدعه، فيفوتهم بذلك أن ينطلقوا في شهواتهم مطمئنين، لا يؤرقهم ضمير، ولا يزعجهم في لهوهم تفكير في سوء المصير، فآثروا أن ينكروا ويتجاهلوا ويستهينوا، قائلين: وأي شيء في ذلك؟ إنها الصدفة أتت بكل ما نرى؛ وإنها الآماد الطويلة للمادة المتحركة، لا تخلو من المصادفات التي تستقيم، فإذا هي هذا الخلق العظيم.

ثم لم يعجزهم أن يضربوا لذلك الأمثال، وأن يطلقوا لأوهامهم عنان الخيال، وأن يسموها بميسم التفكير، وإن لم تكن منه في قليل ولا كثير.

قالوا: إن «صندوقاً من الحروف الأبجدية يعاد تنضيده مئات المرات وألوف المرات، وملايين المرات، على امتداد الزمان الذي لا تحصره السنون ولا القرون، فلا مانع أن هذه التنضيدات تسفر مرة من المرات عن ألياذة هوميروس، أو قصيدة من الشعر المنظوم، أو الكلم المفهوم[1].

هذا مثل من وحي القديم، وإليك آخر من عصر الآلة في الحديث: «إذا تركت ستة قردة تضرب أصابعها على آلة كاتبة دون قصد أو تفكير، مدى ملايين الملايين من السنين، فإنها في النهاية تكون قد كتبت كل كتب المتحف البريطاني، فلو جئنا بآخر صفحة كتبها أحد تلك القردة، حينما كان يضرب بأصابعه الآلة الكاتبة على غير هدى، ووجدناه قد كتب مصادفة إحدى أغاني شكسبير؛ لحق لنا أن نرى في هذه الحادثة مصادفة عجيبة،ولكننا إذا فحصنا كل الصفحات التي كتبتها القردة في ملايين السنين التي يخطئها الحصر، فإننا واجدون أغنية لشكسبير جاءت بها المصادفة العمياء»[2].

هذا هو منتهى بصرهم في التفكير، مصادفة عمياء، تفسر لنا كل ما في الكون من ذلك الإحكام والتقدير.

ولا علينا أن نسأل، بل يسأل كل ذي عقل وتفكير: من أين جاءت الحروف الأبجدية، أو القرود الكاتبة؟ وكيف استمرت كل هذا الزمن المديد؟ ومن الذي يمدها بالقوة المحركة لتمضي في تصرفها وتقلبها، حتى صادفت مرة أن أتت بالعجب العجيب؟ ثم كيف تأتي لوليد الصدفة أن يتماسك، ويطرد على هذا النحو من الإتقان، فلا يختل أو ينحرف، وهو عرضة للكثير من أنواع الخلل والاضطراب؟.

---

(١) ص ٢١٥ من كتاب الله للأستاذ العقاد وفصول الكتاب من أروع ما كتب أو يكتب في هذا الموضوع، فارجع إليه،وقد ناقش هذا المثال على ما سيأتي كما ناقش سواه.

(٢) الكون الغامض لسير جيمس جينز (مترجم) ص ٤ ويبدو أنه يحكي رأياً يقال. وقد ناقشه فيما بعد، وأبان أنه رأى فطير،وأن الآراء متفقة إلى حد كبير في الجانب الطبيعي من العلم يقرب من الإجماع، على أن الكون يبدو الآن في شكل فكر عظيم،لا آلة عظيمة ــ وأن العلم يضطرنا إلى تعديل رأينا السابق الفطير أي القول الصدفة، ص ١٦٧، وما بعدها.

هل علم هؤلاء أن الحروف الأبجدية، التي يتشكل منها بتغير مواضع بعضها من بعض، كل ما تلفظ به الأمم من ألفاظ وعبارات، وما تسطر من كتب ومؤلفات، مذ عرف الناس الكتابة إلى يوم يبعثون، لا تجاوز في معظم لغات العالم الثلاثين، وهي محتملة لأضعاف ذلك من الصور والتراكيب، فهذا الكون الهائل أيمكن أن تمضي أجزاؤه وذراته على غير هدى ألوفاً وملايين من السنين، مستغنية عن تقدير الحكيم الخبير، ثم لا نراه الآن في كل ما نشاهد منه إلا على أدق ما يكون من الصواب، مع ما هنالك من احتمالات الخطأ التي لا يحصيها العد، ولا يبلغها الحساب؟.

وهل يكون الأمر إلا كما قال كاتب كبير «لقد بطل معنى القصد في لغة العقل إن كان هذا كله مصادفة لا تستلزم الخلق والتقدير»[1].

ثم إن لم يكن في الطبيعة نفسها، ولا فيها وراءها قصد ولا تدبير، فكيف يجيء القصد والتدبير لابن الطبيعة الإنسان؟ وهل يصح في الأذهان أن فاقد الشيء يعطيه؟!![2]

المادة والروح[3]:

يقول هؤلاء وأمثالهم يعللون أنفسهم بما يقولون: إن هي إلا المادة والماديات، وإذا أعجزهم أن يفهموا كيف جاءت إلى العالم الحياة، عز عليهم أن

---

(١) ص ٢٤٢، من كتاب الله.

(٢) ماذا نقول لهؤلاء المؤمنين بالصدفة المنكرين للقصد والتقدير. وهم عادة بروسيا معجبون؟! أنقول لهم: لعلها الصدفة وحدها إذاً أطلقت جسمًا صغيرًا سمي القمر الصناعي، ليدور في الفضاء، على ارتفاع معلوم ومجرى مقدور. وليرسل بالصدفة من أجهزة فيه إشارات خاصة، لا يفهمها إلا عقول تملك سرها. وليس وراء ذلك عقل وتفكير. وإنما جاء الأمر كله مصادفة كما نسب شرف إطلاقه لروسيا مصادفة.

وكرة أخرى أتت الصدفة بقمر صناعي يفوق سالفه. وصادف وجود حياة فيه ممثلة في أنثى الكلاب. ليجرب مرسلوها أثر الأجواء العليا في حياة الأحياء. وكل هذا أيضاً مصادفة!!

أيسمح أصحاب الصدفة أن نهمس في آذانهم: بعض حيائكم، فإن وجودكم مخالفين نشوز يثبت القصد والتقدير!!.

(٣) تقوم في أوروبا من عشرات السنين جمعيات للمباحث الروحية.

يعترفوا بعجز أو قصور، وما دري عريفهم أنه عرف شيئاً وغابت عنه أشياء ـ وقالوا: هي المادة بتركبها وتفاعلها وتطورها كان منها ما نرى، ومنها وحدها جاءت الأعاجيب ـ لقد كانت المادة عندهم حقيقة الحقائق، لأنها محسوسة وملموسة، وغير محتاجة في نظرهم إلى تفسير. وإنما يفسرون بها العقل والروح فهما ـ كما يرون ـ من نتاجها. حتى جاءت الكشوف الحديثة وإذا المادة لغز من الألغاز. فثقل المادة المألوف إنما هو في نطاق الجاذبية، وإذا خرج الجسم عن تأثيرها فلا وزن ولا ثقل هناك، وكل الأوضاع سواء. ثم انشقت المادة إلى ذرات، والذرات استحالت إلى إشعاع واهتزاز في الأثير، ثم لم يدر أحد إلى الآن ما الجاذبية وما الإشعاع وما الأثير؟ أمور غامضة تحتاج إلى تفسير ـ وهي بعد غير الحياة والروح. فمن أين جاءت الحياة إلى المادة الصماء؟.

إن العلم الذي يعترف به هؤلاء وسواهم، يقرر أن الأرض قطعة من الشمس، انفصلت عنها من قديم الزمان. وأخذت قشرتها تبرد شيئاً فشيئاً حتى صلحت للحياة على ظاهرها، وما يزال باطنها تنبىء عن حقيقته البراكين.

وحيث كانت الأرض ملتهبة ولا حياة فيها. فمن أين جاءتها الحياة؟ أمن المادة؟ وليس في المادة روح. وهل كانت الأرض ذات اللهيب صالحة لتخلّق هذه الروح؟.

نحن نعلم أن المادة قابلة للتغير والتشكل، وبالتركب والتفاعل تتحول من حال إلى حال، ولكنها في حدود المادة، فلن تنقلب حقيقتها إلى روح، وأن البدن يكون حياً بما فيه من روح. فإذا تخلت عنه الحياة بقيت المادة جماداً يأخذ طريقه إلى التحلل والفناء.

إننا نرى الحياة تتغذى بالمادة وتقوم بها، ولكنها لا تنتفع بالمادة إلا بعد تحليلها وتجزئتها إلى أدق الجزئيات، حتى ما كان منها ملابسا للروح لا يمكن الانتفاع به إلا بعد إزالة كل أثر للروح.

فالمادة تنفع الكائن الحي، ولكن روح الحي غير مادته، خلقها في الحي من خلق له المادة بعلم وحكمة ورحمة بالغة ﴿ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم. الذي أحسن كل شيء خلقه. وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل

نسله من سلالة من ماء مهين، ثم سواه ونفخ فيه من روحه، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾.

فهل تستطيع المادة أن تمنح الحي الحياة، وأن تنشىء له الأسماع والأبصار والعقول، عسى أن يكون لها من الشاكرين؟

إن هذه الروح أكبر شاهد على أن هذا الكون المادي،ليس هو مصدر هذا الوجود، بل ما هو إلا أثر قوة عليا مسيطرة، لها تمام العلم والقدرة والحياة، تعلو حقيقتها على مدارك العقول، وكيف لا، وبين جنوبنا من آثار قدرة الله ما قد عجزت عن إدراك سره تلك العقول.

فهل يكون مصدر هذا الوجود، غير الواحد المعبود؟ لا إله إلا هو الحي القيوم.

أعداء أنفسهم:

سبحانك ربي،احتجبت عن البصائر كما احتجبت عن الأبصار، وأظهرت من واضح بيناتك ما فيه معتبر لقوم يعقلون.

سبحانك ربي، ما أجل قدرتك، وأعظم سلطانك، وأوسع حلمك، أمهلت الخاطئين، عسى أن يتوبوا فتكون لهم خير الغافرين.

وسعتهم في ملكك، وهم يحادونك ويحاربونك، لحكمة أردتها، ومشيئة أنفذتها، وسر تمحص به أولياءك، وتكبت به أعداءك، أشرت إليه في قولك ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم، فليعلمن الله الذين صدقوا، وليعلمن الكاذبين﴾.

هذا عدو صغير، يمد له في غيه فئة صغراء، يتوهم أنه يكبر في نفوسهم،إذ يعرف بمعاداتك أنت الكبير.

كان طالباً في كلية الطب، ظن كما يقول: «أن حقيقة الإنسان ليست لغزاً وأن في إمكان المشرط أن يكشف عنها بضربة واحدة، وأن الجسم ما هو إلا حقيبة إذا فتحتها عرفت كل شيء...».

ولكن سنتين طويلتين مرتا «لقد فتحت الحقيبة، وما زلت بعد سنتين من التعب والكد حيث كنت أمام مجهول».

ولما لم يجد ما ينشده ويبغيه، ولم ير في الجد ما يرضيه، أو يشبع فيه رغبة الخيال المحلق، والهوى الجامح، اشتغل بما حلا له من القصص عدة سنين، حتى إذا تخرج كما قيل وقف نفسه على مثل هذه الأقاصيص وعمل «بآخر ساعة، وأخبار اليوم، والتحرير، وروز اليوسف»[1] وأخذ ينفث حيرته سموماً، وينفض حصيلته أوهاماً، تشيع فيما يكتب لهذه الصحف ــ وبدا له أن أيسر طريق هو إنكار ذلك الذي لا يراه، والذي لم يصادفه مرة واحدة مدى بحث استغرق سنتين كاملتين من الزمان، أما أن يكون وراء الجسد روح، حقيقتها غير حقيقته، وأما أن يكون وراء الموجودات خالق وموجد، فذلك الخطأ المنطقي، والمغالطة التي لا يسيغها أمثاله من المنطقيين.

منطق هؤلاء:

يقول هذا المخلوق في مقال له بعنوان: «السبب».

«أمن المعقول أن تكون هناك حركة بلا محرك، ونظام بلا منظم، وحدث كوني عظيم اسمه الوجود بدون موجد؟

السماء والبحر والأرض والنجوم والفلك العظيم الذي يدور في دقة الساعة ألا يحتاج كل هذا إلى صانع ومهندس»؟

ثم يجيب على تساؤله بقوله:

«والسؤال في ذاته وجيه، ولكنه يحتوي على مغالطة وخطأ منطقي، فقانون السببية الذي يقول بترابط الحوادث في سلسلة من الأسباب والنتائج، هو مجرد ملاحظة علمية، مأخوذة من وقائع جزئية، وهو ينطبق على حوادث مفككة في نطاق حواسنا، ولكنه لا ينطبق على حدث كلي، لأن الكل غاية وسبب في ذاته،

---

(١) من ترجمته في سطور بصدر كتيبه هذا الذي ننقل عنه.

ولا يحتاج إلى سبب من الخارج ـ التفاصيل الدقيقة في حياتي لها سبب، ولكن الوجود في مجموعه مكتمل مستغن عن الأسباب».

ألقى بهذا الكلام إلى صحيفته، فنشرته مزهوة، تبغي بذلك أن تلفت الأنظار، وجمعته دار صحفية أخرى في كتاب، وروجت له في صحفها، وأسبغت على الكاتب النعوت والألقاب، ثم تبرأت من الكتاب أخيراً[1].

وكأني بهذا الكاتب قد خلا إلى أخلائه، فرحا بما سود، فخوراً بما صنع، ولم لا؟ وقد حل ـ فيما يرى ـ مشكلة الوجود، وأزال في ظنه ألغاز الحياة، وألغى (بمنطقه) وجود الإله!.

كنت أطالع هذه الأوهام، ويجول بخاطري قول الحق جل وعلا: «أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا، فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، إن الله عليم بما يصنعون» وقوله سبحانه: ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون، إن هم إلا كالأنعام، بل هم أضل سبيلا﴾.

ولم أجد بأساً أن أقرأ الفقرات السابقة من هذا المكتوب،على طلابي من السنة الرابعة الثانوية في درس التوحيد، وأطلب إليهم أن يتأملوها، فأجابني أحدهم على الفور:

«إذا كانت الأمور الجزئية ـ كما يعترف ـ محتاجة في وجودها إلى سبب، كان ما تركب منها محتاجاً كذلك إلى سبب».

وهذا الجواب على بداهته وسرعته، هو دليل الفطرة السليمة الذي لا ينقضه تمحل المبطلين.

---

(١) كان الظن بهذه الصحف احترام نفسها،ولكن بدا أنها تحترم شيئاً آخر. صدر الكتاب يحمل اسم هذه الدار، وقرظته ورفعت من شأنه صحيفة لها أسبوعية، ثم تبرأت من الكتاب تحت ضغط الرأي العام في صحيفتها اليومية، وعادت فكتبت عنه مقالاً طويلاً تشيد به في صحيفة لها شهرية، ثم اعتذر المدير المسؤول لمن اعترضوا عليه. وكل هذا وأكثر منه يراه من شاء من القراء.

فإذا كانت الأجزاء حادثة، فكيف يكون الكل الذي تركب منها غير حادث؟ وحيث كان وجودها محتاجاً إلى علة وسبب. فما تركب منها فهو في طبيعة وجوده محتاج إلى العلة والسبب.

ضرورة وجود الخالق:

إن الأجزاء الكونية بما فيها الإنسان لها أعمار وآجال، يعرف ذلك فيما يشاهد بالعين المجردة، أو بالمناظير المقربة من الأرض والسماء، وقد أثبت العلماء أن للنجوم أعماراً، وأنهم شاهدوا بعضها يفنى كما يفنى غيرها من الأحياء[1]، فهي إذا حادثة كما هي فانية، وسواها من أمثالها حادث بحكم المماثلة. وما تركب منها لا محالة حادث. محتاج إلى محدث. فهذه الكائنات كلها حادثة محتاجة إلى محدث، يبرزهامن العدم إلى الوجود. لا يعقل أن يكون ذلك المحدث مثلها، وإلا لما صح أن يكون خالقاً لها. فإذا كانت حادثة ومبتدأة، فخالقها قديم ولا أول له. وإذا كانت فانية ولها نهاية، فخالقها باق ولا نهاية له. وإذا كان وجودها استمدته من غيرها،فوجود خالقها سبحانه ذاتي لا أثر للغير فيه.

إن وجود الله تعالى أمر فطري،لا محيد للعقل السليم عن الإقرار به. فإذا كان العقل يرفض أن يكون ثمت عمل من غير عامل، أو توجد صنعة من غير صانع، أو يرتفع بناء بدون بان، أو يظهر اختراع بدون مخترع. فكيف به أمام هذا الكون العجيب، على أدق ما يكون الخلق والتكوين! سماوات مرفوعة، وأرض موضوعة، وجبال منصوبة، وشموس وأقمار، وبحار وأنهار، وزروع

---

(١) يقول الدكتور أحمد زكي مدير جامعة القاهرة سابقاً في كتابه مع الله في السماء: ونحن نرى من النجوم التي تنفجر ما انفجر على قرب نسبي منا، ولا نرى ما بعد منها، ولكن ترى الفوتوغرافيا وهي تسجل نحواً من عشرين نجما تنفجر كل عام في دنيانا وحدها من السماء. ص٢٣٣. ويقول اللورد افبرى في كتابه محاسن الطبيعة وعجائب الكون. ومع أننا نشير إلى ما يطرأ من التغير على بعض النجوم دون غيرها، فالواقع أن كل النجوم تحت سلطة عوامل وفواعل تحدث فيها تغييرات مختلفة، ولكل نجمة عمرها، وتاريخ وجودها، واضمحلالها. وما جرى لها بين اليومين. . ص ١٩٥.

وضروع، وحياة وأحياء، وتقدم وارتقاء، أيمكن أن يكون ذلك كله بدون خلاق عظيم، ومبدع حكيم، يدبر الأمر بحكمته، وينشىء الخلائق بقدرته، ويسبغ عليهم من نعمته، ويحفظ الكون كله إلى أجله؟ حاشا لله. ﴿ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل. لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار. وهو اللطيف الخبير﴾[1].

هذه المعاني الحقة من شؤون الألوهية،واضحة لمن شاء أن يفهم، مقنعة لمن أراد أن يقتنع. ولكن أمثال هؤلاء ممن حسبوا أنفسهم باحثين،فقدوا العلم وفقدوا معه الحياء؛ فهم لا يبالون بما يقولون. وإذ فقدوا احترامهم لأنفسهم فهم لا يحترمون الآخرين!!.

إن العالم يقضي حياته باحثاً في فرع من فروع الحكمة والمعرفة، فلا ينتهي إلى مداه. ومن علماء النبات والحيوان من يمضي عشرات الأعوام، في دراسة خواصها وطبائعها وعاداتها، حتى يستطيع أن يضيف إلى المعرفة الإنسانية شيئاً ذا بال. فهل انتهى هذا الإنسان من مشكلة الألوهية في عامين اثنين؟!!!

لغز ما بعد الموت:

وثمة مسألة أخرى يسميها لغز ما بعد الموت. يعالجها على النحو الآتي: ليست هناك نفس منفصلة عن الجسم. وإنما النفس ظاهرة من ظواهر الجسم.

---

(١) سأل في الدرس طالب فقال: آمنا بأن لهذا الوجود موجداً عظيًا حتيًا، وأن وراء الصنعة صانعاً قديراً، ولكن ما دليلنا على بقائه الآن، ونحن نشاهد المهندس يشيد البناء الضخم ثم يموت ويبقى بعده ما بناه؟.

فكان الجواب: فاتك الفهم الدقيق لما سبق فاشتبه الأمر عليك، إن المهندس الذي أقام البناء، رأى كل ما أراد لبنائه موجوداً فتصرف فيه، وأعمل فكره في ترتيبه وتنسيقه ليبرز على النحو الذي يرتضيه، وأشرف على أعوانه ومساعديه حتى استوى البناء كما يريد.

ولكن أترى المهندس خلق ذرة واحدة من مواد البناء، أو كان قادراً على خلقها لو أراد؟ إن المهندس نفسه ليس إلا واحداً من خلق الله، فزال عند أجله بأمر الله، فكيف يصح أن يضرب مثلاً للخلاق العظيم ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون.. إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليمًا غفورا﴾.

راجع الدليل المذكور يا بني، فهو على إيجازه فصل الخطاب.

إنها كالحرارة المنبعثة من الفرن[1]. إذا انطفأ الفرن وتحول إلى رماد انطفأت وضاعت... فلا محل لافتراض بقاء روحاني[2].

ويزيد هذا المعنى بياناً بقوله:

إن الشخصية ليست واحدة، وإنما هي سيل من الشخصيات المختلفة لا تنقطع عن الجريان، فشخصيتي في سن العاشرة غيرها في سن العشرين، غيرها في سن الثلاثين، وفي كل لحظة هناك شيء يضاف إلى نفسي، وشيء ينقص منها، فأية واحدة من هذه النفوس سوف تبعث وترسل إلى الجحيم؟.

وهناك انقسامات مرضية تحدث أحياناً في الشخصية، فتؤدي إلى الشخصية المزدوجة، وحينئذ تبدأ مشكلة أخرى، هي أيهما يذهب إلى العالم الآخر؛ دكتور جيكل، أو مستر هايد؟.

وهكذا ينتهي من حل ما سماه لغز ما بعد الموت ساخراً، وهكذا كان قطع العقدة أيسر عليه من حلها كما يقولون.

وقد علق على ذلك بعض القارئين تعليقاً علمياً، وإن لم يخل كذلك من سخرية فقال؛ لو أن هذا المخلوق اتهم بالكفر والإلحاد، والطعن على الأديان عامة، والخيانة العظمى للبشرية، وقام في قفص الاتهام، وامتدت محاكمته سنين، فتغيرت ملامح شخصيته ونقص وزنه... أثناء نظر الدعوى، ثم زاد جسمه بعد الحكم عليه بالإعدام، كما يحدث أحياناً لبعض المجرمين، وجاء بعد هذا دور التنفيذ؛ أيستطيع أن يرد القضاء المحتوم بدعوى أن الشخصية المقضى عليها تلاشت، وجاءت سواها لم تقترف ما نسب إليها من الإجرام، أم أن سيف الجلاد سوف يفصل الرأس المخرف، ويرسله إلى الجحيم؟.

---

(١) غفل المسكين حتى فيما يضرب من مثال محسوس. ولو عقل لأدرك أن حرارة الفرن جاءته من خارج. فأدرك بالتالي أن الحرارة غير الفرن في الحقيقة والوجود «وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير».

(٢) سيجيء دليل الحياة الآخرة في مكانه من الرسالة.

وأقول: لقد كان لمن قبل عصرنا من المؤمنين حظ الإيمان، بما ثبت لديهم من الدليل والبرهان، وصار لنا بحمد الله في كثير من الشؤون، حظ الإيمان، وحظ العيان، بما يبدو لنا من آيات العليم الحكيم.

ألم تر إلى الشريط المسجل، يحضر أمام ناظريك كل حركة وإشارة وإيماءة ونظرة ولفظة؛ فإذا أنت ترى كل ما مضى ماثلاً عندك، شاخصاً بين يديك، تشاهد وتسمع، وتقترب من تطبيق قوله تعالى: ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾؟

ألم تر إلى الجهاز الصغير، كأنه في البيت من قطع الأثاث، ينقل إليك الحديث والمعارف وما شئت بشتى اللغات؟. ولقد كانت الأصوات ـ فيما يشاهد ـ عدما من الأعدام، حتى كان عصرنا الحاضر فإذا الصوت له وجود وله كيان، ومن السهل أن ينال من الجو بآلات صنعها الإنسان، وأن ينقل من أقصى مكان في الأرض إلى أقصى مكان، بل تبين أن الغلاف الأرضي من الهواء مستودع هذه الأصوات، وما زلنا نسمع عن التفكير في استعادة كلام القدماء.

فهل يصح لعاقل بعد هذا أن يتشكك ـ بدعوى العلم ـ في إمكان إعادة الأجسام؟.

وإذا كان هذا مما صنعت يد المخلوقين. وهم جاءوا إلى الحياة الأولى غير مختارين، ويخرجون منها إلى الآخرة مضطرين، لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، فماذا يكون من شأن رب العالمين، وأحكم الحاكمين.. ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو أهون عليه، وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾، كيف يعز عليه سبحانه إعادة من أنشأه أول مرة؟ وصدق الله إذ يقول؛ ﴿كما بدأكم تعودون﴾ ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون...﴾ ﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون﴾.

النشوء والارتقاء:

أيها السادة،

من الفكاهات التي يتوهمها بعض الناس علمًا. تلك التي تدور حول النظرية المعروفة «بالنشوء والارتقاء» تلك النظرية التي تقول بأن تطور الأحياء نتيجة انتخاب طبيعي لأكثر الأفراد صلاحية للبقاء ــ وتقرر هذه الأوهام استناداً إلى هذه النظرية. أن أصل الكائنات الحية كائنات ذات خلية واحدة معروفة (بالأميبيا) نشأت في أصلها من الجماد إلى النبات إلى الحيوان. يريدون أن يهونوا بذلك مجيء الروح من المادة. بمجيء الخلية الواحدة من المادة، ثم أن الخلية صارت خلايا، ثم ارتقت وعظمت وتطورت وجاء منها الحيوان في تعدده واختلاف أشكاله وألوانه. ثم تمضي الفكاهات قائلة ومن هذا الحيوان المحترم (أي القرد) جاء إنسان القرن العشرين.

والأمر لا يعدو أن يكون خلطاً في فهم نظرية النشوء والارتقاء. كما هو شأن الماديين المحدثين في فهم آراء العلماء الباحثين ــ يقول الكاتب الكبير الأستاذ العقاد: «شاع زمناً أن داروين يقول: بانتساب جميع الآدميين إلى القرود، وهو لم يقل ذلك قط؛ وإنما قال: إن الحيوانات العادية أنواع متقاربة في التكوين»[1] والعالم الإنجليزي على ما حقق الباحثون، يرى أن الأحياء نشأت في أول الأمر من خمسة أو ستة أصول تامة الخلق،نفخ الخالق فيها نسمة الحياة[2].

وهو يقرر في تواضع العلماء أن أغنى مجموعاتنا (البالنتوجية) ــ أي علم الأحياء الأولى ــ ليس شيئاً بالنسبة إلى الحقيقة، وهو آت من قسم صغير غير مستوفي البحث فيه. ويبين هذا المعنى بوضوح شارحه بخنر الألماني فيقول:

«وإذا تذكرنا أن ثلثي الأرض؛ أو ثلاثة أخماسها تحجبها البحار، وأن قسمًا كبيراً من الثلث الباقي تغطيه الجبال الشاهقة، نعلم أنه تمنعنا من الأبحاث العلمية موانع طبيعية. وأنا لا نعلم شيئاً عن أحافير قارات آسيا وأفريقيا،

---

(١) مطالعات: ص ٦٢.

(٢) فلسفة النشوء والارتقاء شرح بخنر الألماني تعريب شبلي شميل، ص ١٠٤٨٨٦٩.

واستراليا الواسعة، وما نعلمه من هذا القبيل إنما هو آت كله من قارة أوروبا الصغيرة. . .».

فإذا كان ما علموه ـ باعترافهم ـ نتيجة أبحاث في رقعة من الأرض ضيقة، تمنع من شمولها الموانع الطبيعية؛ فماذا أدرك الإنسان من أسرار ما حوله من هذه الآفاق المحيطة في الأرض وفي السماء؟.

لقد كان هؤلاء العلماء مقتنعين بهذه الحقيقة الواضحة التي تشير إليها الآية الكريمة ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾.

وتصوير مذهب دارون في تقارب الأنواع ليس بالأمر العجيب على من يقرأ في الذكر الحكيم ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾.

ولقد سبق العرب دارون إلى ما رأى في ترقي الأنواع، بأوسع مما قرر في بعض نواحيه، يقول الفيلسوف درابر الأميركي: «تأخذنا الدهشة أحياناً عندما ننظر في كتب العرب، فنجد آراء كنا نعتقد أنها لم تولد إلا في زماننا، كالرأي الجديد في ترقي الكائنات العضوية، وتدرجها في كمال أنواعها، فإن هذا الرأي كان مما يعلمه العرب في مدارسهم، وكانوا يذهبون إلى أبعد مما ذهبنا، فكان عندهم عاماً يشمل الكائنات غير العضوية والمعادن. .»[1].

وتطور الأنواع لا ينفي أنها تجري على قانون موضوع بحكمة القوي المتين، بل ذاك أحرى أن يدل على روعة الإحكام والتقدير، في صنع العليم الخبير[2] كذلك ترقى بعض هذه الأنواع، لم يمنع مشاهدة بعض آخر منها يرجع إلى الوراء، أو يذهب إلى العفاء.

---

(١) الإسلام والنصرانية للشيخ محمد عبده، ص٩٣.

(٢) سئل أحد كبار العلماء المؤمنين من فلاسفة الغربيين: ما قولك في مذهب دارون، وكيف تصنع معه بخلق الأنواع؟ (أي على افتراض أن هذه الأنواع جاءت من المادة بذاتها) فأجاب: «إذا كان الذي يصنع ساعة يعد عظيمًا، فلا شك أن الذي يصنع ساعة تصنع ساعة يكون أعظم».

والمعنى المراد ظاهر، فهو يقول: إذا كانت المادة ابدعت الكائنات على هذه الدقة، فقد =

استغلال سيِّىء:

ومع هذا فقد استغل مذهب دارون في إنكار القصد والغاية في الطبيعة وما وراء ذلك من مدبر حكيم. فيقول قائل من الماديين: «إن دارون لم يستنتج من مذهبه كل ما يترتب عليه من النتائج الصريحة،ولم ينف الاعتراض اللاهوتي نفياً صريحاً، بل أراد تقليل قيمته بجعله الخلق المحصور في بضعة أصول قابلة كل تغير لاحق من نفسها أولى بحكمة الخالق وعظمته. . . وكان في إمكان دارون الاستغناء عنه،لولا أنه راعي حاسات مواطنيه الدينية، لأن قاعدة مذهبه الصدفة العمياء».

ثم يجيئنا تابع[1] لهؤلاء يهرف بما لا يعرف. ويملؤه الفخر والغرور حينما تشير إليه إشارة التشجيع صحيفة الأدب السوفييتي فيقول:

»إن الأديان تمر بمرحلة انهيار، تشبه المرحلة التي مرت بها ديانة الإغريق، وهناك اسمان حملا لواء هذا التطور هما: كوبرنيك، ودارون؛ أثبت الأول أن الأرض ذرة تراب بين ملايين الأراضي المبعثرة في الكون، وأثبت الثاني أن الإنسان حلقة في سلسلة مخلوقات يتطور الواحد منها إلى الآخر: من الأميبيا، إلى الذبابة، إلى الكلب، إلى الحمار، إلى القرد، إلى الإنسان، إلى شكسبير».

ويعلق على هذا أستاذ كبير[2] بقوله: «وإن من الجهل والكذب على العلامة تشارلس دارون القطع بأن شكسبير كان في أصوله العريقة في القدم

= خلق المادة خالق عظيم، لن يغض من جلاله هذا الافتراض وإنما ينبىء ذلك عن علم وحكمة لا ينتهيان.

والطريف في الموضوع، أن راوي السؤال والجواب ملحد يستغل مذهب دارون في نفي القصد والغاية وإنكار الصانع الحكيم ــ كما سيأتي بيانه الآن ــ وإنما ذكر هذا تظاهراً بالتزام طريقة العلماء المنصفين في رواية آراء الخصوم عند النقاش.

﴿ومن يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا﴾.

(١) هو عدو نفسه الصغير وقد سبقت الإشارة إلى بعض ما يقول.

(٢) الأستاذ محب الدين الخطيب رئيس تحرير مجلة «الأزهر» في مقاله: يحاربون الله عدد المحرم سنة ١٣٧٦.

ذبابة وكلباً وحماراً وقرداً. إن دارون لا يقول هذا... ونظرية النشوء والتطور في خلق الله من نبات وحيوان نظرية قد تصدق في الأنواع المتقاربة جملة وأحياناً، وكان دارون أعلم بالنبات والحيوان من أن يجرؤ على القطع بهذه الإطلاقات التي نقلناها عن عدو الله صاحب هذه المقالة، والتي لا يجرؤ على إطلاقها هكذا إلا من كان جاهلاً بعلم دارون ونظريته التي لا تزال في موازين الأخذ والرد، ولم تبلغ أن تكون حقيقة علمية بتفاصيلها، مع مرور عشرات السنين على تقريرها في كتاب أصل الأنواع، وما برح معارضاً لها في تفاصيلها كثير من علماء الطبيعة إلى يوم الناس هذا».

* * *

وعلى مقتضى قول هؤلاء الأتباع في تطور النوع إلى سواه، أو تطور الخلية الواحدة إلى الإنسان، فمن اليسير أن يتطور أتفه الأشياء كالبرغوث مثلاً إلى ضخامة الفيل في كذا من السنين، عشرات أو ألوف أو ملايين، أو يتطور ما فوق البرغوث إلى ما يخرق الأرض أو يطول الجبال، والعهد بابن الإنسان أنه يضعف على مر السنين، وتنذره القنبلة الذرية، بأن بقاياه منها ستكون أقزاماً ودون الأقزام.

وإذا كنا لا نقول لهؤلاء، ما يبعد عنهم مما أثبته العلماء، من أن كثيراً من الحيوانات البحرية الأولى، أو الأحياء الدنيا في أعماق البحار، هي اليوم كما كانت عليه في ابتداء الحياة؛ وأن طوائف الأحياء من النباتات والحيوانات حتى ذوات الفِقر، توجد منها آثار مجتمعة أو متجاورة في أسفل طبقات الأرض، وأحياناً يوجد في الطبقات الحديثة أجناس أدنى منها هي ذاتها في الطبقات البعيدة، مما يدل على أنها تأخرت أو تطورت إلى وراء.

كذلك بعض الشعوب البدائية لا يزالون كما كانوا واقفين، بل بعضها انحط بعد أن بلغ في سلم الرقي درجات.

لا نقول لهم شيئاً من هذا، وإنما نسألهم عما يطرق آذانهم كثيراً في هذه الأيام، عن هذه الكائنات الصغيرة الحالية المعروفة (بالبكتريا) والتي هي من

أهم العوامل في تحليل التربة ليتغذى بها النبات؛ أفما كانت موجودة منذ صلحت التربة للحياة، ولإنبات النبات وتغذيته؟

وإذا كانت فهل رأيتم أو سمعتم أن ميكروباً منها نشأ وارتقى حتى صار في حجم الحيوان الكبير، أو في عقل المخترع الخطير؟.

وهل يظن ظان أن يكون لهذه الميكروبات في مستقبل الأيام، شعوب ومجتمعات وأقوام؛ ويظهر فيها المصلحون، وأصحاب الرسالات، ليبصروها بنشأتها وغايتها، ويردوها في أصل خلقها إلى عالم الجمادات؟.

أليس من حقنا أن نقول في هؤلاء: إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس. وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً، وصدق الله إذ يقول: ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم، وما كنت متخذ المضلين عضدا﴾.

أيها السادة،

إذا كنا قد انتهينا من الكلام عن مذهب دارون وما نسب إليه، فربما كان من المناسب أن نلتفت لفتة يسيرة إلى ما يقال من تأثير كشف كوبرنيك على الأديان، فقد زعم بعض خلق الله، أن كشف كوبرنيك لضآلة شأن الأرض وما عليها، بالنسبة لروعة ما في الوجود من كائنات، أمر يدعو إلى جحود أو ارتياب!!

ولست أدري على أي وجه يكون عامل الإيمان عامل إلحاد وكفران، إلا كما يكون الحلو مراً في فم المريض!!

ثم من قال إن الأرض مركز العالم، أو هي أكبر خلق الله في هذا الوجود؟ ألم يسمع السامعون بما قاله العلماء في تفسير أول آية من كتاب الله الكريم ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ وفي سر هذا الجمع في لفظ العالمين ودلالته، وما يذكرون من وجود عوالم بلغت الألوف، روى عن أبي سعيد الخدري (الصحابي الجليل) أنه قال: أن لله أربعين ألف عالم، عالم الدنيا من شرقها إلى غربها عالم واحد منها، وروى نحو من هذا عن سواه، ذكره ابن كثير وغيره من المفسرين.

فإذا جاء بعد ذلك بنحو تسعة قرون[1] عالم غربي يقرر بالدليل المحسوس ما عرفه المسلمون بالإيمان، لم يكن فيه إلا ما يزيد المؤمنين ثقة وإيماناً، ولا يعقل أن يكون ذلك داعياً إلى جحود وإنكار، وإنما يعقل أن يكون موجباً للتواضع ونبذ الغرور. أما لقد حق على هؤلاء المنكرين قول الحق جل وعلا ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾.

ظلام وانحدار:

وهكذا، أيها السادة، إن كان ما سبق ذكره هو بعض ما يتذرع به المبطلون، من التدليس والتلبيس على بعض الأفهام، تحت عناوين لافتة، من الحرية أو التقدمية أو الوجودية.. فكثيراً ما نرى كتابات هؤلاء ملتوية غامضة، تنبىء عما تكن من ضلال وحيرة، وما يمازجها من اضطراب وتشويش، وهم يريدون أن يوقعوا في روع فريق من الناس أنهم أهل علم وفلسفة، وليس في الأمر علم أو فلسفة، وما هو إلا أفن الرأي واختلال الفكر، والتواء النفس والعقل، تنعكس صورته فيما يكتبون.

لقد ذكر أستاذ كبير، يسميه كثيرون عميد الأدب العربي، ويرونه نابغة من نوابغ الأدب الحديث ــ ذكر أنه أراد أن يتعرف ما يقوله هؤلاء، فأخذ يقرأ لزعيم الوجودية كتابه، حتى إذا أتم خمسين صفحة لم يكن قد فهم شيئاً مما يقول؛ فلم يجد بداً أن يلقي الكتاب من يده، غير آسف عليه[2].

---

(١) مات كوبرنيك سنة ١٥٥٣ ونشر كتابه قبل وفاته بعام وقال بدوران الأرض، وسبقه إلى هذا القول فيثاغورس الفيلسوف اليوناني.

(٢) نشر ذلك في الجمهورية حينما أخذ رئيس تحريرها آنذاك الأستاذ أحمد قاسم جوده يهاجم الوجوديين ويكشف مخبآتهم. ولست أدري ما ذلك الكتاب الذي حاول الدكتور طه حسين قراءته فلم يطق على اتمامه صبراً، ولا من ذلك الزعيم الذي يعنيه، فهناك من زعماء الوجودية في جانب الإيمان والزهد أسماء، كذلك هناك آخرون من دعاتها في جانب الإلحاد والتحلل والاستهتار.

ونحن لا نظن الأستاذ العميد عجز عن فهم ما يقولون، إنما نراه قد فهم في أقوالهم اضطراباً وتخليطاً وظلمة، تركت الأقوال يأخذ بعضها بخناق بعض... فإذا هي رواسب هزء وسخرية وتفاهة ـ وإن شئت فاقرأ للوجوديين في مصر، ومن يعدون أنفسهم رواداً لها ما تسوده أقلامهم في صفحاتهم، لتنظر بنفسك هذا الذي رآه السيد العميد.

فكرة الوجودية:

ومن عجب أن يكون للوجودية جوانب متعددة تتسع للنقائض من أطرافها، فيكون فيها إيمان وإلحاد، واعتدال واعتلال، وتماسك وانحلال، ثم لا ترى دعاتها في مصر إلا ملحدين معتلين منحلين(١).

فالوجودية في أصلها دعوة إلى اعتبار الشخصية الإنسانية، والإعتداد بها إزاء طغيان الجماعة على الفرد، وإنصاف تلك الشخصية من تطرف المذاهب التي لا تقيم لها وزناً، في سبيل ما تخاله مصلحة الجماعة، كالشيوعية وما إليها.

واعتبار الشخصية الإنسانية وإنصافها أمر لا غبار عليه، بل يجب أن يكون لها من الحرمة والصيانة ما يليق بمن صنعه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وفضله على كثير ممن خلق، كما أخبر سبحانه في كتابه.

ولكن هذا المعنى الكريم، لا يلبث في النفوس الردغة أن يمزج بأوحالها، ويساط بأقذارها، فيهوي إلى قرار سحيق.

يقول الأستاذ العقاد في كتابه عقائد المفكرين ص ١٣١ عن الوجودية(٢)

---

(١) ظهرت حديثاً مجلة تدعو إلى وجودية مؤمنة في رأيها، لا تنكر على حد قولها وجود الله، ولا تنكر الأديان. ورأينا بين كتابها أساتذة نعرفهم بالاعتدال، ولكن بها إلى جانب ما كتبوا مقالات يغلب عليها طابع الثورة الهادفة إلى زلزلة التفكير والتعبير. من ذلك في عددها الثاني عنوان مقال: نحو دين واحد ـ تستطيع أن تكون موسى وعيسى ومحمدا، كما تستطيع أن تكون إله الأرض. إلى غير ذلك كثير.

(٢) خير ما قرأناه لكتاب مصريين وغير مصريين في بيان هذه المذاهب والآراء تلك الفصول الخاصة بالوجودية والفلاسفة الوجوديين، في كتابي عقائد المفكرين في القرن العشرين، وافيون الشعوب المذاهب الهدامة، للأستاذ العقاد.

«يغلب على مذهبها الشائع في السلوك أنه يدعو إلى الإباحية، واطراح العرف وعقائد الدين ــ لكن الوجودية مدرسة واسعة النطاق، ينتمي إليها المؤمنون والملحدون.. إذ ليست الوجودية في ذاتها دعوة مخالفة للدين، ولا للعقائد الخلقية، وليس بين مذاهبها من وحدة مشتركة غير إنصاف الشخصية الإنسانية أمام الجماعة» ويقول في كتابه أفيون الشعوب.. ص ١٠٠: «وإنما قامت الوجودية كأنها رد فعل لتلك المذاهب» (التي تلغي وجود الفرد) يحفظ للفرد كيانه واستقلاله، ويعرفه بحقوقه وواجباته بين قومه، وبين إخوته في جميع الأمم وجميع الحقب.

ولكن هذه الوجودية قد تنحدر مع المنحدرين بطبائعهم حتى تصبح ضرباً من العدمية، أو ضرباً من الإباحية التي لا تعترف بشيء غير شهوات الفرد، ودوافع الأثرة والأنانية».

ومن المؤسف حقاً أن يكون ما يشيع بين بعض شباب الجامعة المخدوع بكل جديد، هو هذا اللون الأخير بما فيه من سوءات، ولقد استفاضت العبارة المأثورة كتابة عن الطالب الجامعي، وفيها يتبجح بأنه سينشىء ولده بلطجياً إن كان، وبنته عاهرة إن شاءت، وقريب من ذلك عن زميلات له وزملاء.

ثم هذه كتابات أولئك الإباحيين، تحمل وزرها، وتتولى كبرها، صحافة متعددة الألوان والأسماء، تقدم سمومها جرعة بعد جرعة، لتسري بطيئة خبيثة في الأوصال، تقرأ في بعضها ما شاءت اللوثة في كاتبيها، من تناقض و إسفاف وبذاء.

ومن خبث منهج هذه الكتابات، أنها لا تحمل طابع الجحود الصريح دائماً، وإن دلفت إليه في دروب ومنعطفات، فقد تعمد إلى الرواية عن آخرين، تهرباً من عهدة ما تقول من كفر وضلال مبين، وقد تلجأ إلى الأقاصيص الماجنة، التي تغري الناشئة بالانطلاق في الشهوات، والانتقاض على ما تعارف الناس من عرف وأخلاق، أو المقالات التي تجنح إلى الشك والتشكيك فيما يتصل بالدين من عقائد وفضائل وآداب، أو التي تنال من علمائه، وتلقى عليهم من سخائم أصحابها، وأحقاد نفوسهم، بمناسبة وغير مناسبة، لتنزع الثقة منهم، وتحول بين

الناس والأخذ عنهم، وليس بينهم في الحقيقة وبين الأزهريين شخصياً من ترات، ولكن الذي عندهم هو ما بينهم وبين الدين ذاته وآدابه وتعاليمه، تلك التعاليم التي تحمل على الجادة من استقاموا عليها، كما تسجل الخزي والبوار على المتحللين منها، لذلك تراهم بها برمين، وعليها ناقمين، يصعرون لها خدودهم، وينغضون إليها رؤوسهم، ويشفون غل صدورهم بهذا الذي يلفظون. . . . ﴿قد بدت البغضاء من أفواههم، وما تخفي صدورهم أكبر ــ ودوا لو تكفرون كما كفروا؛ فتكونون سواء ــ حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾ فاللهم نصرك وتأييدك ورحمتك يا أرحم الراحمين.

نماذج أوهام:

معذرة أيها السادة إذا اطرد القول يسيرا؛ عسى أن يحطم أنف الباطل أو يكسر شرة المبطلين.

إن للماديين في أي عهد ظهروا، وبأي اسم تسموا ــ إباحيين أو دهريين أو وجوديين ــ طرقاً متشابهة، وشبهاً يصح أن نسميها متوارثة، يتلقفها من ضل منهم عن سواء السبيل. فهم أولاً يحاولون إثارة الشكوك في القلوب، فإذا تم لهم ذلك أغروا ضحيتهم بالتحلل من كل ما ورث من عقائد وآداب وتقاليد. . . وكثيراً ما تكون شبههم واهية، منبئة عن استخفافهم بالعقول، أو عن خفة منهم في العقول، ولن تثبت على نقد أو نظر يسير.

إن منهم من يقول لو كان الله موجوداً لأشبه الموجودات، ولا يصح أن يشبه خلقه، ولو كان معدوماً لأشبه المعدومات. فهو لا موجود ولا معدوم!.

وهذه مغالطة ــ كما ترون ــ مكشوفة، فأنت موجود والسماء موجودة، فهل أنت مثل السماء؟ وأنت موجود والأرض والجبال موجودتان، فهل بلغت ما يبلغان؟ ولله المثل الأعلى، فالله موجود، وأنا موجود، وأنت موجود، ولكن وجوده سبحانه ذاتي وهو منبع الوجود، ووجودي ووجودك فيض رحمته، وأثر قدرته.

سألني أحدهم مرة بحماسة واندفاع: لو كان الله موجوداً فأين هو لنراه؟

وألقى سؤاله في صورة تهريجية، واهماً أنه جاء بالقاصمة، فقلت أتعقل ما تقول يا فتى؟ قال: نعم. قلت وفيك عقل؟ قال: نعم. قلت فأين هو؟ إنا نريد أن نراه، فأسقط في يده، وانفجر من حوله ضاحكين.

وشُبّه على حائر آخر فقال: لو كان الله موجوداً لكان خارج العالم. فيكون منقطعاً عنه، أو كان داخل العالم ملتبساً به، فتلابسه إذاً الأقذار التي يفيض بها الوجود.

فقلت له: هذه الشمس ترسل أشعتها على الكون كله، فتنزل على الزهرة، كما تنزل على البعرة، فهل ترى ينال الشمس من الأدناس شيء؟ قال: لا، قلت: فرب الشمس أقدس من الشمس ﴿وهو معكم أينما كنتم والله بما تعلمون بصير﴾.

* * *

وهكذا ترون أيها السادة: إن هي إلّا تفاهات أحلام، وسخافات أوهام، تطفح بها عقول مريضة، وأخيلة سقيمة، تدور في فلك المحسوس، ولا تحسن أن تفهم المحسوس، بل ماذا بلغت من فهم حقيقة المادة وعناصرها، وقد كانت عند بعض القدامى أربعة، فأربت الآن على المائة، وما يزال العلم يكشف كل يوم عن جديد عجيب، بل كلما تقدم خطوة بدا له من روعة الخلق، ودقة الإحكام، ما يذهل العقول، ويحير الأفهام، مما لو تحدث به متحدث قبل هذا الزمان، لعد قوله ضرباً من الهذيان. وصدق الله إذ يقول: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾ بلى كفي بالله شهيداً. فكيف يسوغ لعاقل أن ينكر ما لا يرى؟ وهل أحاطت الرؤية بكل موجود، بل بكل محسوس؟.

إن أهل الإنكار أقرب إلى الرثاء، وإن كانوا في الحقيقة داء من أخطر الأدواء ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، ولما يأتهم تأويله، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا﴾.

الدعاية الوهمية:

أيها السادة،

لعله قد بقي أن أذكر لكم مثلاً واحداً يكشف نهجاً آخر في الموضوع:

زارني شاب جامعي، في كلية عملية، على جانب من الثقافة والفهم، وناقشني في الفكرة الدينية ساعات، وكان بارعاً في الحديث؛ استمعت إليه طويلاً حتى أتى على كل ما في نفسه، وصححت له بعض ما أخطأ فيه من أفكار تجاه تعاليم الإسلام، واقتنع أو تظاهر بالاقتناع، وجاء دور البحث في الحياة، ومن أين جاءت الحياة إلى المادة، وليست هي من طبيعتها، فقال لي: إن روسيا قد كشفت سر الحياة وأبانت أنها جاءت من نفس المادة.

فسألته متى كان؟.

فأجابني كان ذلك في عام ١٩٥١ م.

فسألته ثانية، وما مصدر هذه الدعوى، وأين دليلك عليها؟.

فقال: نشر ذلك في مجلة علمية وقرأناها.

قلت: أواثق أنت بهذا الذي تقول؟.

فقال تمام الثقة، وأردف قائلاً إنك لا تدري مبلغ الدقة والتحري فيما ينشر في المجلات العلمية، إذ لا يمكن للشك أن يتسرب إليه.

قلت: معذرة إلى عقلك يا فتى؛ إن الذرة أطلقت من عقالها في عام ١٩٤٥، وألقيت أول قنبلة على مدينة يابانية، فما هي إلاّ لحظات حتى تجاوب البرق، واهتز الأثير، وفاضت الأنباء في الإذاعة والصحف، وتناقل الخاص والعام، والعالم والأمي، ذلك النبأ العجيب، حتى لم يعد سراً يخفي على أحد، والذرة مادة، وفي نطاق المادة، وما تزال من ظاهر الحياة، أفتطن أن تهتدي روسيا إلى ما هو أعظم وأروع، بل إلى ما لا يكون أمر الذرة إليه شيئاً، فتكشف سر الحياة، وتميط اللثام عن حقيقة الوجود، ثم لا يعلم ذلك إلاّ في مجلة علمية، لا يأتيها في نظرك الباطل[1]؟.

(١) لم أضرب له المثل بالقمر الصناعي الروسي، وحديث العالم كله عنه، لأنه لم يكن وجد بعد.

يؤسفني أن أقول لك: لقد كنت مستعبداً تمام الاستعباد،لهذا الذي لاح لك أنه بريق من العلم، وأنت الذي تستكثر أن تخضع لهذه الآيات البينات مما أجمع عليه البشر، سواء كانوا من المليين الذين جاءتهم رسل الله، فاهتدوا بهديهم، أو الوثنيين الذين عبدوا الأصنام، وقالوا ما نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى الله زلفي، تنكر هذه الفطرة التي تحس بالقوة الغيبية المهيمنة على الكون بأسره، وتستكثر الخضوع للحق الذي قام عليه شأن الجماعة، وبه استقام أمر هذا الوجود، من آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ثم تكون عقيدتك بعد هذا كلـه مجرد خبر في مجلة علمية..

وهكذا ترى أن من لم يدن للحق دانه الباطل، ومن لم ينتفع بالنور احتوته الظلمات، فانظر إلى ما تقول بجانب الحقيقة الكبرى، وهل بلغ أكثر من أن يكون مضرب المثل في كتاب الله ﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء، كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون، إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء، وهو العزيز الحكيم، وتلك الأمثال نضربها للناس، وما يعقلها إلاّ العالمون﴾.

الفطرة تهدي إلى الله:

وبعد:

فهذه مثل من شبهات المبطلين، سلطت عليها أنوار من الحق فلم تلبث أن طارت شعاعاً، وهكذا الباطل دائمًا، لا بقاء له إلاّ في غفلة الحق عنه ﴿فأما الزبد فيذهب جفـاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾.

أيها السادة،

إذا كان الله تعالى قد ضرب لنا في كتابه الكريم الأمثال،فلنا بذلك أسوة، ــ والأمثال يضربها لذي اللب الحكيم ــ وهذا مثل ساقه بعض الحكماء فقال[1]:

(١) فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد عبد الله دراز. عن كتاب الإيمان والمؤمنون لمؤلفه فضيلة الشيخ عبد اللطيف مشتهري.

قدر في ذهنك بيتاً منسق البنيان، فاخر الأثاث والرياش، قائماً على جبل مرتفع، تكتنفه غابة كثيفة. . وقدر أن رجلاً جاء إلى هذا البيت، فلم يجد فيه ولا حوله دياراً، ولا نافخ نار. . فحدثته نفسه أن تكون صخور الجبل قد تناثر بعضها، ثم تجمع ما تناثر منها ليأخذ شكل هذا القصر البديع، بما فيه من مخادع ومقاصير وأبهاء ومرافق، وأن تكون أشجار الغابة قد تشققت بنفسها ألواحاً، وتركبت أبواباً وسرراً، ومقاعد ومناضد، ثم أخذ كل منها مكانه فيه، وأن تكون خيوط النبات، وأصواف الحيوان وأوباره قد تحولت بنفسها أنسجة موشاة، ثم تقطعت طنافس ووثائر وزرابي، فانبثت في حجراته، واستقرت على أرائكه، وأن المصابيح جعلت تهوي إليه بنفسها من كل مكان، فنشبت في سقفه زرافات ووحداناً.

ألست تحكم بأن هذا حلم نائم، أو حديث خرافة، قد أصيب صاحبه باختلاط؟.

فما ظنك بقصر. . السماء سقفه، والأرض قراره، والجبال أعمدته، والنبات زينته، والشمس والقمر والنجوم مصابيحه، أيكون في حكم العقل أهون شيئاً من ذلك البيت الصغير؟.

أولا يكون أحق بلفت النظر إلى باريء مصور حي قيوم، خلق فسوى وقدر فهدى؟.

وصدق الله القائل: ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض، وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾.

وضرب رجل زراعي مثلاً آخر من بيئته العلمية فقال:

«إذا تصادف أن مر الإنسان على مزرعة شاسعة في مكان مقفر، ووجد أنه قد ضرب حولها سور حديدي يمنع عنها غوائل المعتدي، وأن هذا السور قد زين بما ترتاح إليه الأعين من نباتات ومتسلقات، وخلف السور قد وزعت مصدات الريح، ومانعات الهبوب، وللمزرعة باب جميل وممر مناسب، على جانبيه مقاعد وثيرة لراحة الداخل، وأماكن لقضاء حاجته من أكل وشراب، ثم تتسع بعد

ذلك المزرعة، فترى أشجارها المختلفة الأصناف قد شذبت،وأزهارها المتعددة الأشكال نسقت، وترعها وقنواتها شقت بما يحقق الغرض منها، وفي وسطها بناء للسكن قد حسن شكله وانتظم ما بداخله، وقد زود بكل ما يحتاج إليه المرء، فهل يسند خلق ذلك كله إلى مصادفة؟ وأن هذه المزرعة وهذا البناء وجدا من عدم، وأنها والمكان الخرب سيان»؟.

كذلك الحال في عجائب الحياة والأحياء، إذا ألقينا نظرة.. متأملة على أي كائن حي، لا نملك إلاّ أن نسبح للخالق الذي يثبت وجوده ما نراه في عجائب الحياة من الأحياء: الإنسان والحيوان والنبات[١].

وإذا كان المثل الأول لعالم من كبار العلماء، والثاني لفاضل باحث في الحياة والأحياء، تخرج من كلية الزراعة منذ بضعة عشر عاماً، فذاك أعرابي لم يجلس إلى معلم، ولم يختلف إلى جامعة، ولم يطالع شيئاً سوى ما قرأه في ذلك السفر المنشور، أمام كل ذي لب بصير. سئل كيف عرفت ربك يا أعرابي؟ قال: سبحان الله!! إن البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج... أفلا يدل ذلك كله على اللطيف الخبير؟.

العلم يضاعف الشعور بعظمة الله:

وإذا كانت الفطرة السليمة تهدي إلى الله، فان العلم الراسخ يورث خشية الله، ويتاح لصاحبه أن يدرك من عظمته سبحانه ما لا يتاح لسواه. يقول إينشتين فيما نقله عنه الدكتور أحمد زكي في كتابه (مع الله في السماء)[٢]:

«إن أعظم جائشة من جائشات النفس وأجملها، تلك التي تستشعرها النفس عند الوقوف في روعة أمام هذا الخفاء الكوني والإظلام.

إن الذي لا تجيش نفسه لهذا، ولا تتحرك عاطفته حي كميت، إنه خفاء

(١) الله والعلم الحديث، للأستاذ عبد الرزاق نوفل.

(٢) ص ٢٦٥، ٢٦٦. والدكتور زكي مدير سابق لجامعة القاهرة.

لا نستطيع أن نشق حجبه، وإظلام لا نستطيع أن نطلع فجره، ومع هذا نحن ندرك أن وراءه شيئاً هو الحكمة أحكم ما تكون، ونحس أن وراءه شيئاً هو الجمال أجمل ما يكون.

وهي حكمة وهو جمال لا تستطيع أن تدركهما عقولنا القاصرة إلّا في صور لهما بدائية.

وهذا الإدراك للحكمة، وهذا الإحساس بالجمال في روعة، هو جوهر التعبد عند الخلائق». ويستطرد الدكتور زكي قائلاً:

ويقول إينشتين ـ وهو أعلم علماء الأرض في الكون وظواهره، وأحقهم بالكفر، إن كان علم يدعو إلى كفر، وأولاهم باتباع ما اعتاد علماء الغرب ومقلدوهم من أهل الشرق، من إغفالهم ذكر الله ـ يقول إينشتين: «إن الشعور الديني الذي يستشعره الباحث في الكون،هو أقوى حافز على البحث العلمي، وأنبل حافز».

وهو يقول: «إن ديني هو إعجابي في تواضع، بتلك الروح السامية التي لا حد لها، تلك التي تتراءى في التفاصيل الصغيرة القليلة التي تستطيع إدراكها عقولنا الضعيفة العاجزة، وهو إيماني العميق بوجود قدرة عاقلة مهيمنة تتراءى حيثما نظرنا في هذا الكون المعجز للأفهام».

«إن هذا الإيمان يؤلف عندي معنى الله»، اهـ.

إجماع:

فوجود الله تعالى ضرورة عقلية، وحقيقة علوية، بل بداهة فطرية، أجمع البشر عليها، سواء منهم من عرفوا وجود الله بهدى الأنبياء، ومن تلمسوه بحكمة الحكماء، ومن برهنوا عليه بأدلة العلماء، ومن رنوا إليه بإحساس الحياة والأحياء، فمثلوا له التماثيل، أو صوروا له التصاوير، وهم إياه يدعون، لم يشذ عن كل أولئك في القديم والحديث إلّا همل ضلوا عن سواء السبيل، فزاغت منهم البصائر والأبصار، لتحق بذلك حكمة الابتلاء والاختبار، ﴿ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيّ عن بينة، وإن الله لسميع بصير﴾.

اليوم الآخر:

وإذا كان وجود الله سبحانه تنبـيء عنه الروعة البادية في الخلق والتقدير، وكان علمه وحكمته جليين في كل صغير وكبير، وكان الكون كله شاهداً بعدالة مطلقة لا تحدها حدود أو قيود، فلن يستقيم في ميزان العدالة والعلم والحكمة أن يتساوى غير متساويين، أو يجمع بين متناقضين، أو يُسلك الجيد والرديء في قرن، أو يمضي المحسن والمسيء إلى غاية واحدة، بل قضي الحق الذي قامت به السماوات والأرض،أن يمضي كل فريق إلى غايته، وينتهي إلى نهايته، ويلقي جزاءه بما قدمت يداه من خير أو شر.

وحيث لم تكن الحياة الأولى ميدان الجزاء الأوفى، كانت ولا ريب معبراً لحياة أخرى، كي توفي كل نفس ما كسبت وهم لايظلمون، ﴿وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾.

أيها السادة،

لقد جرت عادتنا ــ نحن الأزهريين ــ في دراستنا للعقائد من علم التوحيد، أن نكرر القول بأن المعول عليه في العقيدة وفي جدال المخالفين، هو الدليل العقلي؛ لأنه يخاطب كل عاقل، ويقتنع به كل ذي تفكير، بينما الدليل النقلي، ويقصد به القرآن الكريم وصحيح السنة ــ على قداستهما ــ فإنما يقتنع به من كان من المؤمنين، وهذا ضرب من الإنصاف، قلما عرف قبل الإسلام في دين.

ولكن انظر في هذه الآية الكريمة ــ وأمثالها كثير ــ لترى كيف تقرر الدليل العقلي،كأروع ما يكون التقرير، مستمدة من النشأة الأولى، ومن إحياء الجماد آية على إحياء الموتى وبعث من في القبور.

يقول الله تعالى بعد أن أخبر عن زلزلة الساعة، وانها شيء عظيم.

﴿يأيها الناس ان كنتم في ريب من البعث؛ فإنّا خلقناكم من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة، لنبين لكم، ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى، ثم نخرجكم طفلاً، ثم لتبلغوا أشدكم، ثم

لتكونوا شيوخاً، ومنكم من يتوفى، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً، وترى الأرض هامدة، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج، ذلك بأن الله هو الحق، وانه يحيـي الموتى، وانه على كل شيء قدير، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور﴾.

فعلى المرتابين في يوم الدين، أن ينظروا إلى نشأتهم، وكيف جاءوا إلى الحياة، وإلى مقامهم فيها، وكيف صاروا من ضعف إلى قوة، ومن قوة إلى ضعف وشيبة، ثم إلى انتهاء.

وليتأملوا مرة ثانية، فلئن كانت حياة الإنسان المشاهدة جاءت من حياة، فليروا هذه الأرض الهامدة؛ وكيف تحيا بالماء، ويخرج منها النبات الحي إلى حين؛ إن الذي أحياها لمحيـي الموتى، وإن الذي بعث النبات من أحشائها يبعث من في القبور، وإنه على كل شيء قدير.

﴿إن الساعة آتية أكاد أخفيها، لتجزي كل نفس بما تسعى، فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها، واتبع هواه فتردى﴾.

ولقد بدأ العلماء المعاصرون الباحثون في الطبيعة والكونيات، يقتربون من فهم يوم القيامة، ويتوقع بعضهم فناء هذا العالم، على نحو ما تنبيء عنه الآيات القاطعة في الكتاب الكريم، من نحو قوله تعالى: ﴿إذا وقعت الواقعة، ليس لوقعتها كاذبة، خافضة رافعة، إذا رجت الأرض رجا، وبست الجبال بسا، فكانت هباء منبثا. . إذا الشمس كورت، وإذا النجوم انكدرت، وإذا الجبال سيرت. . إذا السماء انفطرت، وإذا الكواكب انتثرت، وإذا البحار فجرت، وإذا القبور بعثرت، علمت نفس ما قدمت وأخرت﴾.

يقول السيد رشيد رضا في تفسير المنار، (ص ٢٦٤، ج ٢): «وإن كثيراً من علماء الهيئة الغربيين ليتوقعون خراب هذا العالم بقارعة، تحدث من اصطدم بعض الكواكب ببعض، بحيث يبطل الجذب العام. .».

ولو لم يقترب العلماء الباحثون من إدراك ذلك بوسائلهم العلمية الحاضرة

ما ضرنا شيئاً، فكم مرة التوى نهر المعرفة الإنسانية على نفسه[1]، وكم مرة اثبت ما نقض، ونقض ما أثبت، ولكن الذي لا شك فيه أن العلم كلما ازداد معرفة وعمقاً، ازداد تواضعه، وكف من غلوائه، ولقد رأينا بالعين المجردة، وبالآلات المقربة، فناء بعض هذه الأجرام السماوية الأرضية وتلاشيها. . ، وما جاز الفناء على بعضه، جاز لا محالة على كله، ﴿ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين، قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون﴾.

إن الإيمان باليوم الآخر جزء متمم لحقيقة الإيمان بالله، وقدرته وحكمته وعدله، وبه يستقيم في التفكير اختصاص هذا الإنسان بما اختص به من بين سائر خلق الله، فأوتي من العقل والفهم والاستعداد ما لا يتأتى لغيره ولولا ما أعد له من حياة فوق هذه الحياة، لكان أيسر أن يحيا كما يحيا كل حيوان، وينتهي كما ينتهي كل مخلوق سواه، ولما كان ثمت معابد ومساجد للذاكرين، والراكعين والساجدين، ولما كانت هناك حاجة إلى هداة ومرشدين، وإلى رسل مبشرين ومنذرين، ليقيموا البشر على طريق الصواب، ويعلموهم الحكمة والكتاب، ويهدوهم إلى صراط العزيز الحميد.

ولو حذف كل هذا من تاريخ الإنسانية الطويل، فماذا يبقى لبني الإنسان، بل ماذا يبقى من بني الإنسان؟.

﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا، قل بلى وربي لتبعثن، ثم لتنبؤن بما عملتم، وذلك على الله يسير. . . فاصبر على ما يقولون، وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب. . إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير. .﴾.

فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون، وسبحان الله رب العزة عما يصفون، وسبحان الله الحليم الكريم، وسبحان الله رب السموات السبع ورب العرش العظيم.

﴿يسبح له من في السموات والأرض والطير صافات، كل قد علم صلاته

---

(١) من تعبيرات صاحب الكون الغامض.

وتسبيحه، والله عليم بما يفعلون﴾، ﴿وان من شيء إلّا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليمًا غفوراً﴾.

ورحم الله من يقول[1]:

رب شقت العباد أزمان لا ... كتب يهتدي بها ولا أنبياء
ذهبوا في الهوى مذاهب شتى ... جمعتها الحقيقة الزهراء
....
ربّ هذي عقولنا في صباها ... نالها الخوف واستباها الرجاء
فعشقناك قبل أن تأتي الرسـ ... ـل وتاقت بحبك الأعضاء
واتخذنا الأسماء شتى فلما ... جاء موسى انتهت لك الأسماء
وسرت آية المسيح كما يسـ ... ـرى من الفجر في الوجود الضياء
أشرق النور في العوالم لما ... بشرتها بأحمد الأنباء
باليتيم الأمي والبشر المو ... حي إليه العلوم والأسماء
أشرف المرسلين آيته النطـ ... ـق مبيناً وقومه الفصحاء

ولله دره إذ يقول:

إنما ينكر الديانات قوم ... هم بما ينكرونه أشقياء

ورضي الله عن، البوصيري إذ يقول:

أو نور الإله تطفئه الأفـ ... ـواه وهو الذي به يستضاء

وصدق الله العظيم، ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلّا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾.

---

(١) شوقي.

كلمة خاتمة

وأخيراً فنحن لا نجزع أن يقوم نفر مفتونون، فينفثوا سموماً أو تهريجاً في سماء هذا البلد الأمين. فما أشبه ما ينفثون بجراثيم التطعيم؛ هي (ميكروبات) المرض، ولكنها تنبه قوى الأجسام، فتصمد لها بعد أن كانت هامدة، وتنهض بعد أن كانت خامدة، وتتكتل بعد فرقة، وتعمل جاهدة بعد توان وتمهل، فإذا الباطل وقد اندحر، وإذا الحق وقد انتصر ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾.

نحن لا نجزع لهذا، ولكن الذي نريده ونلح فيه أن يعمل المخلصون، وأن يعملوا متعاونين، وأن يواصلوا العمل الحازم الجاد، لتربية الجيل الناشيء، وحماية الشباب من عوامل الإغراء والتضليل، وأن يملئوا القلوب من حولهم نوراً وإيماناً وطمأنينة، لتحيا القلوب حياة الفضيلة، ويكون لنا المجتمع القوي السليم، الذي لا تنال منه الطفيليات، والله ولي المؤمنين، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

رب إن الـهـدى هـداك وآيـا تـك نـور تهـدي بهـا من تشـاء

﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾.

﴿ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه، إن الله لا يخلف الميعاد﴾.

﴿ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان، أن آمنوا بربكم فآمنا﴾.

سمعناه من قلوبنا ينادينا، وسمعناه من أنبيائك ورسلك يرشدنا ويهدينا، وسمعناه من آياتك المنشورة في الأنفس والآفاق، ناطقة أبلغ النطق بجلال قدرتك، وبليغ حكمتك، وعظيم رحمتك.

﴿ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيآتنا وتوفنا مع الأبرار﴾.

﴿ ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك، ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد﴾.

وصل أللهم على نبيك الأمين، سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، وعلى آلهم وصحبهم والتابعين، آمين.

أمل وشكر

لئن كان تمهيد الرسالة في بيان ما يحيط بجو الشباب، من بواعث الشكوك والارتياب، فليكن ختامها ذلك الأمل المرجو في الشباب النابه، من شباب الأزهر الناهض، حامل الدعوة في لسانه، والقرآن في جنانه.

ومن شباب في الجامعة مؤمن، يستطيع ــ لو شاء ــ بثقافته المدنية الواسعة، أن يكون عن دينه ومجده وتراثه من أقوى المدافعين، وأروع المجاهدين.

ومن شباب الأمة الوثاب، على امتداد الساحة الإسلامية وشيوخها العاملين في كل مكان.

وثمت شكر خاص «لجماعة الشبان المسلمين» في طنطا ــ وهم جميعاً بقوة إيمانهم شباب ــ على مواقفهم الرائعة، في كفاح الإباحية والتحلل والإلحاد، وعلى هذا العمل الدائب الموصول، في غير تظاهر أو ادعاء، لنصرة هذا الدين، وبث تعاليمه في النفوس.

إن الأمل معقود ــ بعد توفيق الله ــ بكل أولَئك شباباً وشيوخاً لعزة الوطن، ورفع راية الإسلام.

وصدق الرسول الأمين: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خالفهم، حتى يأتي أمر الله».

والحمد لله. عليه توكلت، وإليه أنيب.

كمال أحمد عون